لا انفصام بين الإيمان والحياة في الإسلام

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آلـه وصـحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الإيمان الحقَّ لا ينفصل عن حياة الإنسان أبدا،لأن الله تعالى الذي خلق الكون والحياة بما فيه الإنسان أنزل له منهجا يصلح به الحياة الدنيا قبل الآخرة،ويسعده بها،فيرى أثر هذا الإيمان ماثلا جليًّا في حياته،فيعيش بسلام ووئام مع نفسه ومع أسرته ومـع مجتمعـه،ومع الناس،ومع الكون كله .قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: ٩٧]

مَنْ عَمِلَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،وَقَامَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْـهِ،وَهُوَ مُـؤْمِنٌ بِاللهِ،مُصَـدِّقٌ كُتُبَـهُ وَرُسُلَهُ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعِدُهُ بِأَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً،تَصْحَبُهَا القَنَاعَةُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ،وَالرِّضَـا بِمَا قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ،إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ رِزْقٍ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ بِتَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَى وَقِسْمَتِهِ،وَاللهُ مُحْسِنٌ كَرِيمٌ،لاَ يَفْعَلُ إِلاَّ مَا فِيهِ المَصْلَحَةُ،وَفِي الآخِـرَةِ يَجْزِيـهِ اللهُ الجَـزَاءَ الأَوْفَى،وَيُثِيبَهُ أَحْسَنَ الثَّوَابِ،جَزَاءَ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ،وَمَا تَحَلَّى بِهِ مِنْ إِيمَانٍ .[1]

وقال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)} [الأعراف: ٩٦]

وفي هذه الرسالة الصغيرة ردٌّ على من يزعم وجود انفصام بين الدين الحق والحياة .

أرجو من الله تعالى أن ينفع بها جامعها وقارئها وناشرها في الدارين .

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود

في ٩ شوال ١٤٣١ هـ الموافق ل ١٨/٩/٢٠١٠ م

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[1] - أيسر التفاسير لأسعد حومد [ص ١٩٩٨]

حال الناس قبيل الإسلام

كانت الأرض المعمورة – عند مولد هذه الرسالة الأخيرة – تكاد تتقسمها امبراطوريات أربع:الامبراطورية الرومانية في أوربا وطرف من آسيا وإفريقية.والامبراطورية الفارسية وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية.والامبراطورية الهندية.ثم الامبراطورية الصينية.وتكادان تكونان مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها وهذه العزلة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتا الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها.

وكانت الديانتان السماويتان قبل الإسلام – اليهودية والنصرانية – قد انتهتا إلى أن تقعا – في صورة من الصور – تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين،حيث تسيطر عليهما الدولة في الحقيقة،ولا تسيطران على الدولة! فضلا على ما أصابهما من انحراف وفساد.

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة،ولاضطهاد الفرس تارة،ولم تعد تسيطر في هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال وانتهت – بسبب عوامل شتى – إلى أن تكون ديانة مغلقة على بني إسرائيل،لا مطمع لها ولا رغبة في أن تضم تحت جناحها شعوبا أخرى.وأما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية.التي كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق التي انتشرت فيها المسيحية سرا وهي تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهادا فظيعا،تخللته مذابح شملت عشرات الألوف في قسوة ظاهرة.فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني،ودخل الامبراطور الروماني في المسيحية،دخلت معه أساطير الرومان الوثنية،ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها فلم تعد هي المسيحية السماوية الأولى.

كما أن الدولة ظلت في طبيعتها لا تتأثر كثيرا بالديانة وظلت هي المهيمنة،ولم تهيمن العقيدة عليها أصلا.وذلك كله فضلا على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل – فيما بينها – مزق الكنيسة ،وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقا.وأوقع في

الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمي للدولة.وهؤلاء وهؤلاء كانوا في الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء! وفي هذا الوقت جاء الإسلام.جاء لينقذ البشرية كلها مما انتـــهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمور.وجاء ليهيمن علـــى حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى اللّه على هدى وعلى نور.

و لم يكن هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة الضخمة في حياة البشر.فلم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية مـــن تلـــك الامبراطوريات وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله.وكانت الجزيرة العربية،وأم القـــرى وما حولها بالذات،هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ،وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى.لم تكن هنـــاك حكومـــة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة.تقف للعقيـــدة الجديدة.بسلطانها المنظم،وتخضع لها الجمـــاهير خضـــوعا دقيقا،كمـــا هـــو الحـــال في الامبراطوريات الأربع.

و لم تكن هنالك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة فقـــد كانـــت الوثنيـــة الجاهليـــة ممزقة،ومعتقداتها وعباداتها شتى.وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجـــن والكواكـــب والأصنام.ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة،فإنه لم يكـــن ذلـــك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين الجديد.ولولا المصالح الاقتصـــادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ما وقفوا هذه الوقفة في وجه الإســـلام.فقـــد كـــانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة واضطراب.

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الديني،أفضـــل ظـــرف يقوم فيه دين جديد،متحررا من كل سلطان عليه في نشأته،خارج عن طبيعته.وفي وســـط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك في حماية نشأة الـــدعوة الجديدة.

كان النظام القبلي هو السائد.وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام.فلما قام محمـد - ﷺ- بدعوته وجد من سيوف بني هاشم حماية له ووجد من التوازن القبلي فرصة،لأن العشـائر كانت تشفق من إثارة حرب على بني هاشم بسبب حمايتهم لمحمد - ﷺ- وهم على غير دينه.بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا في أول الدعوة،وتدع تأديبه - أو تعذيبه - لأهله أنفسهم.

والموالي الذين عذبوا لإسلامهم عذبهم سادتهم.ومن ثم كان أبو بكر - رضي اللّه عنـه - يشتري هؤلاء الموالي ويعتقهم،فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء،وتمتنع فتنتهم عن دينهم ..ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد.

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحيـة والنخـوة.وهـي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها.

وقد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضـة وكانـت تجـيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لهـا في ضـمير الغيـب وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف امبراطـوريتي كسـرى وقيصر.وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشـمال.المـذكورتان في القرآن في قوله تعالى:«لِإِيلافِ قُرَيْشٍ.إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ.فَلْيَعْبُـدُوا رَبَّ هـذَا الْبَيْتِ ،الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»..

وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاسـتقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة.فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله،ووجه هذه الطاقة المختزنة،التي كانت تتهيأ كنوزها للتفتح ففتحها اللّه بمفتاح الإسلام.وجعلـها رصيدا له وذخرا.ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجـال العظـام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول - ﷺ- من أمثال:أبي بكـر وعمـر وعثمـان وعلي.وحمزة والعباس وأبي عبيدة.وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليـد وسـعد بـن معاذ،وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التي تلقت الإسلام فتفتحت

له،وحملته،وكبرت به من غير شك وصلحت ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام.

وليس هنا مكان التفصيل في وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة،وصيانة نشأتها،وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها،مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة،التي جاءت للبشرية جميعها.وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة - ﷺ- فذلك أمر يطول.ومكانه رسالة خاصة مستقلة.وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة اللّه المكنونة،التي يظهر التدبر والتفكر بعض أطرافها كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة.

وهكذا جاء هذا القرآن عربيا لينذر أم القرى ومن حولها.فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام،وخلصت كلها للإسلام،حملت الراية وشرقت بها وغربت وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنساني الذي قام على أساسها،للبشرية جميعها - كما هي طبيعة هذه الرسالة - وكان الذين حملوها هم أصلح خلق اللّه لحملها ونقلها وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض لميلادها ونشأتها.

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول - ﷺ- حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ويتمحض هذا المهد للعقيدة التي اختير لها على علم.كما اختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعا.فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها،وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض.

ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولا،وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانيا ..وقد كانت اللغة،كأصحابها،كبيئتها،أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم.[٢]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٩٣٠]

أثر الإيمان وتطبيق شرع الله في الرخاء المعيشي

إن إقامة دين اللّه في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هـذه الدنيا وفي الآخرة على السواء.لا افتراق بين دين ودنيا،ولا افتراق بين دنيا وآخرة.فهـو منهج واحد للدنيا وللآخرة للدنيا وللدين ..تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكـبيرة بمناسـبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين اللّه وأكلهم السحت وتحريفهم الكلم من بعـد مواضعه لينالوا عرضا من أعراض هذه الأرض ..واتباع دين اللّه كان أجدى علـيهم في الأرض والسماء،وفي الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق

قال تعالى:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ،وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِـنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ.مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» ..

إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي،ومن ثم فهمـا تمـثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية.ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل،وإلى بيـان هـذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم والعقل البشري،والموازين البشرية،والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج،بإزاء هذا الأمر الخطير ..

إن اللّه - سبحانه - يقول لأهل الكتاب - ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتـاب - إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم - وهذا جـزاء الآخرة.وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج اللّه الممثل في التوراة والإنجيل ومـا أنزله اللّه إليهم من التعاليم - كما أنزلها اللّه بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حيـاتهم الدنيا،ونمت وفاضت عليهم الأرزاق،ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم مـن فـيض الرزق،ووفرة النتاج وحسن التوزيع،وصلاح أمر الحياة ..ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقـون ولا يقيمون منهج اللّه - إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها «وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ».

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج اللّه في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا،لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدّم وهـو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا،ويحقق لأصحابه جزاء العاجلـة ..وفـرة ونماء وحسن توزيع وكفاية ..يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الـوفرة والفـيض في قوله:«لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ».

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق آخر مسـتقل لصلاح الحياة في الدنيا.إنما هو طريق واحد،تصلح به الدنيا والآخرة،فـإذا تنكـب هـذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة ..هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيـق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا ..

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب،ولكنه كذلك – وتبعا لذلك – منهج حياة إنسانية واقعية،يقام،وتقام عليه الحياة ..وإقامته – مع الإيمان والتقوى – هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية،وفيض الرزق،ووفرة النتاج،وحسن التوزيـع،حتى يأكل الناس جميعا – في ظل هذا المنهج – من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا مـن سعادة الدنيا،ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا ..وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية.

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم.بحيث أصـبح الفرد العادي – وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة – لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقـاء بين الطريقين.ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسـابه وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع ..لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا ..

حقيقة:إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن اللّه،وعن منهجه للحياة،اليوم تباعـد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع،والكسـب في مضمار المنافع الدنيوية،أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل

الخلقية والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف،الذي يحض عليه الدين.كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة،والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع،لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق،ولا مرضية للّه سبحانه ..ولكن ..تراها ضربة لازب! ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؟

كلا ..إنها ليست ضربة لازب! فالعداء بين الدنيا والآخرة والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل ..بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا.إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ!

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا.وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان اللّه وثوابه الأخروي ..هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية ..ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج اللّه الذي رضيه للناس ..فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة،وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة اللّه فريضة.والخلافة عمل وإنتاج،ووفرة ونماء،وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم،كما يقول اللّه في كتابه الكريم.

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن اللّه،بإذن اللّه،وفق شرط اللّه ..

ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر،وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها – بل الخامات والموارد الكونية كذلك – هو الوفاء بوظيفة الخلافة.ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة – وفق منهج اللّه وشريعته حسب شرط الاستخلاف – طاعة للّه ينال عليها العبد ثواب الآخرة بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات

الأرض التي سخرها اللّه له ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه،كما يصور التعبير القرآني الجميل!

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض،ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له،عاصيا للّه،ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه اللّه لها،وهو يقول للملائكة:«إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».وهو يقول كذلك للناس:«وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ»،ومعطلا لرزق اللّه الموهوب للعباد ..وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا! والمنهج الإسلامي – بهذا – يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق.فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته،ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه.فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي.

هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة،وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج اللّه ..فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف ..إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة – في المنهج الإسلامي – لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان ..فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه اللّه،فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون،ولا يأكل من سحت،ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه – مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض اللّه وما شرع – والمنهج يسجل للفرد عمله – في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبار ات – عبادة للّه يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة ..

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته باللّه في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة،وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان،وفي العمر كله بحج بيت اللّه.وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي.إنها تجديد للعهد مع اللّه على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة.وهي قربى للّه يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا

المنهج،الذي ينظم أمر الحياة كلها،ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم.ويتجدد معها الشعور بعون اللّه ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل،والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق ..وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء،والجهاد لإقرار منهج اللّه في الأرض،وتقرير سلطانه في حياة الناس ..إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج،المعين على أداء شطره الآخر ..وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج اللّه في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض.كما يعد اللّه الناس في هاتين الآيتين الكريمتين ..

إن التصور الإسلامي،وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه،لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا – ولا العكس – إنما يقدمهما معا في طريق واحد،وبجهد واحد.ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج اللّه وحده في الحياة – دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج اللّه،أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج – ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل.

والتصور الإسلامي – وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه – لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية ..وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا – كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان! – فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي – والمنهج الإسلامي – فريضة الخلافة في الأرض.والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس ..وهذه وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا والطريق هو الطريق،ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم.والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار

الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة،ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع ..لأنهما لا تجتمعان !..

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس،وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة،وبين العبادة الروحية والإبداع المادي،وبين النجاح في الحياة الدنيا،والنجاح في الحياة الأخرى ..إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج اللّه،وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها،معادية لمنهج اللّه في الأساس والاتجاه ..وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا،فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى ..

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه،إذا هم آثروا اطراح الدين كله،على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة،والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم،يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب،ولا تطيق الفراغ والخواء.وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية،أو فلسفية،أو فنية ..على الإطلاق ..لأنها جوعة النزعة إلى إله ..

وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في اللّه ،وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته،وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج اللّه،وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني،والسلوك الديني،مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود.

وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء،سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية،أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية ..وتتصور – أو يصور لها أعداء البشرية – أن الدين للّه،وأن الحياة للناس! وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق،والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل! وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة ..ضريبة

الشقاء والقلق والحيرة والخواء ..لأنها لا تهتدي إلى منهج اللّه الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة،بل ينسق ..ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة،في فترة موقوتة،إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي،ولا تقيم منهج اللّه في حياتها،وهي موفورة الخيرات،كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء ... إنه رخاء موقوت،حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت.وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني ..والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى :

تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم،مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء،وحافلا بالأحقاد،وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة ..وهو بلاء على رغم الرخاء! ..

وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر،لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع ..وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام! وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره – إن عاجلا أو آجلا – إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

فالعمل والإنتاج والتوزيع،كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق.والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان! وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم – وبخاصة أشدها رخاء ماديا – مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال.ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج،وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار! وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة ..وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ..ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء! وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار – وأظهر

الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي – وليس هذا إلا مـثلا للآخـرين،في فعـل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني وافتراق الدنيا والآخرة،وافتراق الدين والحياة أو اتخاذ منهج للآخرة من عند اللّه،واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس وإيقاع هـذا الفصـام النكد بين منهج اللّه وحياة الناس!

وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة،نحب أن نؤكد أهميـة التناسق في منهج اللّه بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس،وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شـرط اللّـه لأهـل الكتاب – ولكل جماعة من الناس – أن يأكلوا من فـوقهم ومـن تحـت أرجلـهم في الدنيا،وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة وأن يجتمع لهم الفـردوس الأرضي – بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة – وفردوس الآخرة بما فيه مـن نعـيم ورضوان ..ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية ..فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة ..فضلا على أن للصلة باللّه مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ويرفع كل قيم الحياة ويقوّم كل موازين الحياة ..

فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي،وكل شيء فيه يجـيء تبعـا له،ومنبثقا منه ومعتمدا عليه ..ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق.

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة باللّه وإقامة شريعة اللّـه في الحيـاة ..كل أولئك ثمرته للإنسان،وللحياة الإنسانية.فاللّه – سبحانه – غني عن العـالمين ..وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس،وجعلها مناط العمل والنشاط ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها،وعده باطلا لا يقبل،وحابطا لا يعيش،وذاهبا مع الريح ..فليس هذا لأن اللّه سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجـه للحيـاة ..ولكن لأنه – سبحانه – يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج ..في الحـديث القدسي:عَنْ أَبِي ذَرٍّ؛عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،أَنَّهُ قَالَ:يَا عِبَادِي،إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ

هَدَيْتُهُ،فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ،فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ،يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ،يَا عِبَادِي،إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ،يَا عِبَادِي،إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي،وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي،يَا عِبَادِي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ،كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ،مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ،كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ،قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي،فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي،إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،يَا عِبَادِي،إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ،ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا،فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا،فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ،وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ،فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ...(رواه مسلم)[٣]

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج اللّه في الحياة والحكم بشريعة اللّه ..فهي كلها لحسابنا نحن ..لحساب هذه البشرية ..في الدنيا والآخرة جميعا ..وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ..

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول:إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب.

فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج اللّه المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل.وما أنزل إليهم من ربهم – وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة – فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن ..أولى بالشرط الذين يقولون:إنهم مسلمون ..فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص:الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل،والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه اللّه في شرعهم من شرع من قبلهم ..وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل اللّه غيره من أحد ..وقد انتهى إليه كل دين قبله و لم يعد هناك دين يقبله اللّه غيره ..أو يقبل من أحد غيره.

[٣] – صحيح مسلم– المكتز – (٦٧٣٧) –الصعيد :وجه الأرض، وقيل :هو التراب وحده.=المخيط :بكسر الميم، وإسكان الخاء :الإبرة.

فهؤلاء أولى أن يكون شرط اللّه وعهده لهم ..وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضـــاه اللّـــه منهم،وأن يستمتعوا بما يشرطه اللّه لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ومـــن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ..

إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه اللّه لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي – أو الذي كان إســـلاميا بتعـــبير أصـــح – وشرط اللّه قائم والطريق إليه معروف ..لو كانوا يعقلون ..[٤]



[٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٣٢١]

{ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)} [القصص: ٥٧]

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال.وكانت النهاية واحدة،هذا خسف به وبداره،وذلك أخذه اليم هو وجنوده.ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة.إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد،حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد.

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال.عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية،بلا ستار من الخلق،ولا سبب من قوى الأرض،لتضع حد للشر والفساد .

وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص،وتساوقها وتتناسق معها وتؤكد سنة اللّه التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان.وقد قال المشركون لرسول اللّه – ﷺ- :«إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا».فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم،لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم،ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه.

فساق اللّه إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون،تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار اللّه،ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها.

وعقب على مقالتهم «أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا؟ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ..يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي

جعل لهم هذا الحرم الآمن وهو الذي يديم عليهم أمنهم،أو يسلبهم إياه ومضى ينـذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر:«وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا،وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ».

ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا.وقد مضت سنة اللّه من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير:«وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا،وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ».ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان.

وتنتهي السورة بوعد من اللّه لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه،لا بد رادّه إلى بلده،ناصره على الشرك وأهله.وقد أنعم عليه بالرسالة و لم يكن يتطلع إليها وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون.سيعود آمنا ظافرا مؤيدا.[5]

والآن يجيء السياق إلى قولتهم التي قالوها للرسول - ﷺ- معتذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة،التي تعظم الكعبة،وتدين لسدنتها،وتعظم أصنامها،فتتخطفهم تلك القبائل،أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل.فيبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخي،ومن حاضرهم الذي يشهدونه،بعد ما أبان لهم في هذه السورة عن ذلك في قصة موسى وفرعون.ويجول معهم جولة في مصارع الغابرين تكشف لهم كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقة ممثلة في البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسل والإعراض عن الآيات.ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضآلة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند اللّه:« وَقالُوا:إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا.أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا؟ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ.وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ

[5] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٤٠٥]

قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها،فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا،وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ.وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا،وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ.وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها،وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ؟ أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ؟» ..

إنها النظرة السطحية القريبة،والتصور الأرضي المحدود،هو الذي أوحى لقريش وهو الذي يوحي للناس أن اتباع هدى اللّه يعرضهم للمخافة،ويغري بهم الأعداء،ويفقدهم العون والنصير،ويعود عليهم بالفقر والبوار:«وَقالُوا:إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» ..

فهم لا ينكرون أنه الهدى،ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس.وهم ينسون اللّه،وينسون أنه وحده الحافظ،وأنه وحده الحامي وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى اللّه وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم اللّه.ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم،ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى،ولاختلف تقديرهم للأمور،ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار اللّه،وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه. وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة وأن هذا ليس وهما وليس قولا يقال لطمأنة القلوب إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى اللّه معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه،والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة.فاللّه خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له.والذي يتبع هدى اللّه يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة،ويأوي إلى ركن شديد،في واقع الحياة.

إن هدى اللّه منهج حياة صحيحة.حياة واقعة في هذه الأرض.وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية.وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة.إنما هو يربطهما معا برباط واحد:صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض.ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة.فالدنيا مزرعة الآخرة،وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها.بشرط اتباع هدى

اللّه.والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه.

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى اللّه إلا منحهـــا القـــوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة.أمانة الخلافـــة في الأرض وتصريف الحياة.

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة اللّه والسير على هداه.يشفقون من عداوة أعـــداء اللّه ومكرهم،ويشفقون من تألب الخصوم عليهم،ويشفقون من المضـــايقات الاقتصـــادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول اللّـــه – ﷺ– :«إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا».

فلما اتبعت هدى اللّه سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقـــل مـــن الزمان.

وقد رد اللّه عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم.فمن الذي وهبهم الأمن؟ ومـــن الذي جعل لهم البيت الحرام؟ ومن الذي جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا؟ تتجمع في الحرم من كل أرض،وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكـــثيرة:«أَوَلَـــمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا؟» ..فما بالهم يخـــافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى اللّه،واللّه هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منـــذ أيـــام أبيهم إبراهيم؟ أفمن أمنهم وهم عصاة،يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة؟! «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ..لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة.ولا يعلمون أن مرد الأمـــر كله للّه.

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا،وأن يأمنوا التخطف حقا،فها هي ذي علـــة الهـــلاك فليتقوها: «وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا،وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ» ..

إن بطر النعمة،وعدم الشكر عليها،هو سبب هلاك القرى.وقد أوتوا من نعمة اللّه ذلـــك الحرم الآمن فليحذروا إذن أن يبطروا،وألا يشكروا،فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي

يرونها ويعرفونها،ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية ..«لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا».وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها،وتروى قصة البطر بالنعمة وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحدا،و لم يرثها بعدهم أحد «وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ».على أن اللّه لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا.فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده:«وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا،وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ» ..

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى – أي كبراها أو عاصمتها – أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد.وقد أرسل النبي – ﷺ– في مكة أم القرى العربية.فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير.«وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ» ..يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين! على أن متاع الحياة الدنيا بكامله،وعرض الحياة الدنيا جميعه،وما مكنهم اللّه فيه من الأرض،وما وهبهم إياه من الثمرات،وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة،إن هو إلا شيء ضئيل زهيد،إذا قيس بما عند اللّه:«وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها.وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى .أَفَلا تَعْقِلُونَ؟».

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ولا لما يمن به اللّه عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ولا لما وهبه اللّه للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده.إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ،وحتى لو كمل،وحتى لو دام،فلم يعقبه الهلاك والدمار.إنه كله «فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها» ..«وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى » خير في طبيعته وأبقى في مدته.«أَفَلا تَعْقِلُونَ؟» ..

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك.ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار!

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة،ولمن شاء أن يختار:«أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ؟» ..

فهذه صفحة من وعده اللّه وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقيه.وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد،ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارا للحساب.والتعبير يوحي بالإكراه «مِنَ الْمُحْضَرِينَ» الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين،لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد!

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم:«إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين! فكيف واتباع هدى اللّه معه الأمن في الدنيا والتمكين،ومعه العطاء في الآخرة والأمان؟ ألا إنه لا يترك هدى اللّه إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون.ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن.وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار.[٦]

وقد كان المشركون يشركون استبقاء لمكانتهم الدينية في مكة،وما يقوم عليها من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة،وما تحققه هذه السيادة من مغانم متعددة الألوان.العزة والمنعة في أولها بطبيعة الحال.مما جعلهم يقولون:«إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» ..فاللّه يقول لهم:«مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها،وتبدل الوسائل والخطط أيضا! إن العزة كلها للّه.وليس شيء منها عند أحد سواه.فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره.ليطلبها عند اللّه،فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد،ولا في أي كنف،ولا بأي سبب «فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» ..

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة وتخشى اتباع الهدى – وهي تعترف أنه الهدى – خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى.إن الناس هؤلاء القبائل والعشائر وما إليها،إن هؤلاء ليسوا مصدرا للعزة،ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها «فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» ..وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو اللّه.وإذا كانت لهم منعة

---

[٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٣٤٤١]

فواهبها هو اللّه.وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول،لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر.ليأخذ من الأصل الذي يملك وحده كل العزة،ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاقمم.وهم مثله طلاب محاويج ضعاف! إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية.وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين،وتعديل الحكم والتقدير،وتعديل النهج والسلوك،وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزا كريما ثابتا في وقفته غير مزعزع،عارفا طريقه إلى العزة،طريقه الذي ليس هنالك سواه!

إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر.ولا لعاصفة طاغية.ولا لحدث جلل.ولا لوضع ولا لحكم.ولا لدولة ولا لمصلحة،ولا لقوة من قوى الأرض جميعا.وعلام؟ والعزة للّه جميعا.وليس لأحد منها شيء إلا برضاه؟ ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح:«إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» ..ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه.فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند اللّه.القول الطيب والعمل الصالح.القول الطيب الذي يصعد إلى اللّه في علاه والعمل الصالح الذي يرفعه اللّه إليه ويكرمه بهذا الارتفاع.ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء.

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس.حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير اللّه.حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي.يستعلي بها على شهواته المذلة،ورغائبه القاهرة،ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس.ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه.فإنما تذل الناس شهواقمم ورغباقمم،ومخاوفهم ومطامعهم.ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان ..وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان! إن العزة ليست عنادا جامحا يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل.وليست طغيانا فاجرا يضرب في عتو وتجبر وإصرار.وليست اندفاعا باغيا يخضع للنزوة ويذل للشهوة.وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح ..كلا! إنما

العزة استعلاء على شهوة النفس،واستعلاء على القيد والذل،واستعلاء على الخضوع الخانع لغير اللّه.ثم هي خضوع للّه وخشوع وخشية للّه وتقوى،ومراقبة للّه في السراء والضـــراء ..ومن هذا الخضوع للّه ترتفع الجباه.ومن هذه الخشية للّه تصمد لكل ما يأباه.ومن هـــذه المراقبة للّه لا تغنى إلا برضاه.[٧]



[٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٧٠١]

الإيمان والعمل الصالح يسببان الحياة الطيبة

قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: ٩٧]

إن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها.قاعدة الإيمان باللّه «وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء،وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته،إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

والعقيدة هي المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعا،وإلا فهي أنكاث.فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثا وغاية.فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير.لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل.

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال.فقد تكون به،وقد لا يكون معها.وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية:فيها الاتصال باللّه والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة،وسكن البيوت ومودات القلوب.وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة ..وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفي منه القليل،حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند اللّه.وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة.وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا،ويتضمن هذا تجاوز اللّه لهم عن السيئات.فما أكرمه من جزاء!.[٨]



[٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٨٥٠]

الإيمان والتقوى سبب لفتح خيرات السماوات والأرض

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: ٩٦]

فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب،واتقوا بدل الاستهتار لفتح اللّه عليهم بركات من السماء والأرض .. هكذا .. «بركات من السماء والأرض» مفتوحة بلا حساب. من فوقهم ومن تحت أرجلهم. والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر،الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات ..

وأمام هذا النص – والنص الذي قبله – نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء. وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان،تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال.بل تنكره كل الإنكار! ..

إن العقيدة الإيمانية في اللّه،وتقواه،ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة،وعن خط تاريخ الإنسان.

إن الإيمان باللّه،وتقواه،ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض. وعدا من اللّه. ومن أوفى بعهده من اللّه؟ ونحن – المؤمنين باللّه – نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن،فنصدقه ابتداء،لا نسأل عن علله وأسبابه ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله .. نحن نؤمن باللّه – بالغيب – ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإيمان ..

ثم ننظر إلى وعد اللّه نظرة التدبر – كما يأمرنا إيماننا كذلك – فنجد علته وسببه! إن الإيمان باللّه دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصدق في الإدراك الإنساني،وحيوية في البنية البشرية،ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود .. وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان باللّه قوة دافعة دافقة،تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها،وتتجه بها إلى وجهة واحدة،وتطلقها تستمد من قوة اللّه،وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها،وفي

دفع الفساد والفتنة عنها،وفي ترقية الحياة ونمائها .. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان باللّه تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد. وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية للّه،أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة. من العبيد للهوى ولبعضهم بعضا! وتقوى اللّه يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور،في دفعة الحركة ودفعة الحياة

وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج،فلا يعتدي،ولا يتهور،ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح.وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح،عاملة في الأرض،متطلعة إلى السماء،متحررة من الهوى والطغيان البشري،عابدة خاشعة للّه .. تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد اللّه بعد رضاه. فلا جرم تحفها البركة،ويعمها الخير،ويظلها الفلاح .. والمسألة – من هذا الجانب – مسألة واقع منظور – إلى جانب لطف اللّه المستور – واقع له علله وأسبابه الظاهرة،إلى جانب قدر اللّه الغيبي الموعود ..

والبركات التي يعد اللّه بها الذين يؤمنون ويتقون،في توكيد ويقين،ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها. وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان،النابع من كل مكان،بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان. فهي البركات بكل أنواعها وألوانها،وبكل صورها وأشكالها،ما يعهده الناس وما يتخيلونه،وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال! والذين يتصورون الإيمان باللّه وتقواه مسألة تعبدية بحتة،لا صلة لها بواقع الناس في الأرض،لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها اللّه – سبحانه – وكفى باللّه شهيدا.

ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ. وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» ..

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمما – يقولون:إنهم مسلمون – مضيقا عليهم في الرزق،لا يجدون إلا الجدب والمحق! .. ويرى أمما لا يؤمنون ولا يتقون،مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ .. فيتساءل:وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال! إن أولئك الذين يقولون:إنهم مسلمون .. لا مؤمنون ولا متقون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم للّه،ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا اللّه! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم،يتألهون عليهم،ويشرعون لهم – سواء القوانين أو القيم والتقاليد – وما أولئك بالمؤمنين. فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه،ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره .. ويوم كان أسلاف هؤلاء الــذين يزعمون الإيمان مسلمين حقا. دانت لهم الدنيا،وفاضت عليهم بركــات مــن الســماء والأرض،وتحقق لهم وعد اللّه.

فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق .. فهذه هي السنة:«ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَــنَةَ حَتَّى عَفَوْا،وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ»! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكــره. وهو أخطر من الابتلاء بالشدة ..

وفرق بينه وبين البركات التي يعدها اللّه من يؤمنون ويتقون. فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به،وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح .. وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة،مهددة في أمنها،مقطعة الأواصر بينها،يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال. فهي قوة بلا أمن. وهو متاع بلا رضى. وهي وفرة بلا صلاح. وهــو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد. وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال ..

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى،بركات في الأشياء،وبركات في النفوس،وبركات في المشاعر،وبركات في طيبات الحياة .. بركات تنمي الحياة وترفعها في آن. وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .[٩]



[٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٧٩٣]

الاستخلاف في الأرض

قال تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: ٥٥]

ذلك وعد اللّه للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد – ﷺ– أن يستخلفهم في الأرض.وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم.وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ..ذلك وعد اللّه.ووعد اللّه حق.ووعد اللّه واقع.ولن يخلف اللّه وعده ..فما حقيقة ذلك الإيمان؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد اللّه حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله وتوجه النشاط الإنساني كله.فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى اللّه لا يبتغي به صاحبه إلا وجه اللّه وهي طاعة للّه واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة،لا يبقى معها هوى في النفس،ولا شهوة في القلب،ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول اللّه – ﷺ– من عند اللّه.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله،بخواطر نفسه،وخلجات قلبه.وأشواق روحه،وميول فطرته،وحركات جسمه،ولفتات جوارحه،وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعا.ويتوجه بهذا كله إلى اللّه ..يتمثل هذا في قول اللّه سبحانه في الآية نفسها تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» والشرك مداخل وألوان،والتوجه إلى غير اللّه بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك باللّه.ذلك الإيمان منهج حياة كامل،يتضمن كل ما أمر اللّه به،ويدخل فيما أمر اللّه به توفير الأسباب،وإعداد العدة،والأخذ بالوسائل،والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض ..أمانة الاستخلاف ..فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم ..إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه اللّه للبشرية كي تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض،اللائق بخليقة أكرمها اللّه.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح،لا على الهدم والإفساد.وقــدرة على تحقيق العدل والطمأنينة،لا على الظلم والقهر.وقدرة على الارتفاع بالنفس البشـــرية والنظام البشري،لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاســـتخلاف هو الذي وعده اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..وعدهم اللّه أن يستخلفهم في الأرض – كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم – ليحققوا النهج الذي أراده اللّه ويقرروا العدل الذي أراده اللّه ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشـــأها اللّـــه ..فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض،وينشرون فيها البغي والجور،وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان ..فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض.إنما هم مبتلون بما هم فيه،أو مبتلـــى بهم غيرهم،ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها اللّه آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده:«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ» ..وتمكين الدين يـــتم بتمكينـــه في القلوب،كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها.فقد وعدهم اللّه إذن أن يستخلفهم في الأرض،وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض.ودينهم يـــأمر بالإصلاح،ويأمر بالعدل،ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض.ويـــأمر بعمـــارة هـــذه الأرض،والانتفاع بكل ما أودعها اللّه من ثروة،ومن رصيد،ومن طاقة،مع التوجه بكـــل نشاط فيها إلى اللّه.

« وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً» ..ولقد كانوا خائفين،لا يأمنون،ولا يضعون سلاحهم أبدا حتى بعد هجرة الرسول – ﷺ– إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ:" " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـــتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهَمُ الَّـــذِي ارْتَضَـــى لَهُـــمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الآيَةِ، قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺوَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ سِـــرًّا وَهُـــمْ

خَائِفُونَ لا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَـأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلاحِ، وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلاحِ، فَغَبَرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلا مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا، مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السِّلاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:لَنْ تَغْبُرُوا إِلا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الآيَةِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السِّلاحَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺفَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِيْنَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا وَكَفَرُوا بِالنِّعْمَةِ فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رُفِعَ عَنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الْحَجَزَةَ، وَالشُّرَطَ وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بِهِمْ"[10].

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ :لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَآوَتْهُمُ الأَنْصَارُ،رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ كَانُوا لاَ يَبِيتُونَ إِلاَّ بِالسِّلاحِ وَلا يُصْبِحُونَ إِلاَّ فِيهِ،فَقَالُوا :تَرَوْنَ أَنَّا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنِيْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ لاَ نَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ ؟ فَنَزَلَتْ :{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]".[11]

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» ..الخارجون على شرط اللّه.ووعد اللّه.وعهد اللّه ..

لقد تحقق وعد اللّه مرة.وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط اللّه:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» ..لا من الآلهة ولا من الشهوات.ويؤمنون – من الإيمان – ويعملون

---

[10] – تفسير ابن أبي حاتم [١٠ /١٩٣](١٥٥٦٨) وتفسير ابن كثير – دار طيبة [٦ /٧٩] والدر المنثور للسيوطي – موافق للمطبوع [١١ /٩٧]حسن

[11] – المستدرك للحاكم مشكلا [٣ /١٦٩](٣٥١٢) صحيح – زيادة مني

صالحا.ووعد اللّه مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة.إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن.

لتخلف شرط اللّه في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء،وجازت الابتلاء ،وخافت فطلبت الأمن،وذلت فطلبت العزة،وتخلفت فطلبت الاستخلاف ..كل ذلك بوسائله التي أرادها اللّه،وبشروطه التي قررها اللّه ..تحقق وعد اللّه الذي لا يتخلف،ولا تقف في طريقة قوة من قوى الأرض جميعا.

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبألا يحسب الرسول - ﷺ- وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم:«وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ.وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ..

فهذه هي العدة ..الاتصال باللّه،وتقويم القلب بإقامة الصلاة.والاستعلاء على الشح،وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة.وطاعة الرسول والرضى بحكمه،وتنفيذ شريعة اللّه في الصغيرة والكبيرة،وتحقيق النهج الذي أراده للحياة:«لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال،وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال.

فإذا استقمتم على النهج،فلا عليكم من قوة الكافرين.فما هم بمعجزين في الأرض،وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق.وأنتم أقوياء بإيمانكم،أقوياء بنظامكم،أقوياء بعدتكم التي تستطيعون.وقد لا تكونون في مثل عدتهم من الناحية المادية.ولكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد اللّه في تلك الآيات.ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية،وهو يدرك شروطها على حقيقتها،قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب،أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج اللّه،وحكمت هذا النهج في الحياة،وارتضته في كل أمورها ..إلا تحقق وعد اللّه بالاستخلاف والتمكين والأمن.وما من مرة خالفت عن

هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة،وذلت،وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستبد بها الخوف وتخطفها الأعداء.ألا وإن وعد اللّه قائم.ألا وإن شرط اللّه معروف.فمن شاء الوعد فليقم بالشرط.ومن أوفى بعهده من اللّه؟[12]



[12] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٢٥٠]

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]

والوعد واقع وكلمة اللّه قائمة.ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان،على الرغم من جميع العوائق،وعلى الرغم من تكذيب المكذبين،وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين.ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار.وذهبت سطوهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل.تسيطر على قلوب الناس وعقولهم،وتكيف تصوراتهم وأفهامهم.وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض.وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل،وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل.باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعث منها.وحقت كلمة اللّه لعباده المرسلين.إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.هذه بصفة عامة.وهي ظاهرة ملحوظة.في جميع بقاع الأرض.في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة للّه،يخلص فيها الجند،ويتجرد لها الدعاة.إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق،وقامت في طريقها العراقيل.ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار،وقوى الدعاية والافتراء،وقوى الحرب والمقاومة،وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها.ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده اللّه لرسله.والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه.الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.هذا الوعد سنة من سنن اللّه الكونية.سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ..ولكنها مرهونة بتقدير اللّه،يحققها حين يشاء.ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة،ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين!

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند اللّه وأتباع رسله.ويريد اللّه صورة أخرى أكمل وأبقى.فيكون ما يريده اللّه.ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون ..ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد اللّه أن تفوقهم القافلة الرابحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة.وكان ما أراده اللّه هو الخير لهم وللإسلام.وكان هو النصر الذي أراده اللّه لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يهزم جنود اللّه في معركة من المعارك،وتدور عليهم الدائرة،ويقسو عليهم الابتلاء لأن اللّه يعدهم للنصر في معركة أكبر.ولأن اللّه يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع،وفي خط أطول،وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة اللّه،ومضت إرادته بوعده،وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد:«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ».[١٣]



[١٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٣٧٧٧]

الاستقامة على الطريق يؤدي لوفرة الماء الغزير

قال تعالى:{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا } [الجن: ١٦]
يقول اللّه – سبحانه – إنه كان من مقالة الجن عنا:ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة،أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم،فيفيض عليهم بالرزق والرخاء ..«لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» ..ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون.
وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة،يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى اللّه سبحانه.ومثل هذه اللفتات كثير في الأسلوب القرآني،لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها.وهذه اللفتة تحتوي جملة حقائق،تدخل في تكوين عقيدة المؤمن،وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها.
والحقيقة الأولى:هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى اللّه،وبين إغداق الرخاء وأسبابه وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه.وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة.وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة،ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء.ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية.
وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة.وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف،حتى استقاموا على الطريقة،ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء،وتتدفق فيها الأرزاق.ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا.وما يزالون في نكد وشظف،حتى يفيئوا إلى الطريقة،فيتحقق فيهم وعد اللّه.وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة اللّه،ثم تنال الوفر والغنى،فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها،تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء.وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) ..

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية:هي أن الرخاء ابـتلاء مـن اللّـه للعبـاد وفتنة.ونبلوكم بالشر والخير فتنة.والصبر على الرخاء والقيـام بواجـب الشـكر عليـه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة! على عكس ما يلوح للنظـرة العجلـى ..فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها بحكم ما تثيره في الـنفس مـن تجمع ويقظة ومقاومة ومن ذكر للّه والتجاء إليه واستعانة به،حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره.فأما الرخاء فينسي ويلهي،ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومـة في النفس،ويهيئ الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان! إن الابتلاء بالنعمة في حاجـة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة ..نعمة المال والرزق كثيرا ما تقود إلى فتنة البطـر وقلة الشكر،مع السرف أو مع البخل،وكلاهما آفة للنفس والحياة ...ونعمة القوة كثيرا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور،والتطاول بالقوة على الحـق وعلـى الناس،والتهجم على حرمات اللّه ..ونعمة الجمال كثيرا ما تقود إلى فتنة الخـيلاء والتيـه وتتردى في مدارك الإثم والغواية ..ونعمة الذكاء كـثيرا مـا تقـود إلى فتنـة الغـرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين ..وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر اللّه فعصمه اللّه ..

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر اللّه،الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخـاء،مؤد إلى عذاب اللّه.والنص يذكر صفة للعذاب «يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً» ..توحي بالمشقة مذكان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد.وقد درج القرآن علـى الرمـز للمشقة بالتصعيد.فجاء في موضع:{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الـرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) } [الأنعام:١٢٥] وجاء في موضع:{كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَـا عَنِيدًا (١٦) سَـأُرْهِقُهُ صَـعُودًا (١٧) } [المـدثر:١٦، ١٧] وهـي حقيقـة ماديـة معروفة.والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء! [١٤]

[١٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٤٦٣٦]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

عدم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد

قال تعالى:{ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) } [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨

التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة في المتاع المتاح في هذه الأرض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج اللّه ..التفاتة لإعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة،حتى لا يكون فتنة لأصحابه،ثم كي لا يكون فتنة للمؤمنين،الذي يعانون ما يعانون،من أذى وإخراج من الديار،وقتل وقتال:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ.مَتاعٌ قَلِيلٌ ..ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ.لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ» ..

وتقلب الذين كفروا في البلاد،مظهر من مظاهر النعمة والوجدان،ومن مظاهر المكانة والسلطان،وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة.يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان،ويعانون الأذى والجهد،ويعانون المطاردة أو الجهاد ..وكلها مشقات وأهوال،بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون! ..ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة،وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء،والباطل وأهله في منجاة،بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد.

هنا تأتي هذه اللمسة:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ.مَتاعٌ قَلِيلٌ.ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ».متاع قليل ..ينتهي ويذهب ..أما المأوى الدائم الخالد،فهو جهنم ..وبئس المهاد!

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات.وخلود.وتكريم من اللّه :«جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» ..«خالِدِينَ فِيها» ..«نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» ..«وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ» ..

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة،وهذا النصيب في كفة،أن ما عند اللّه خير للأبرار.وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان.وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألباب! إن اللّه – سبحانه – في موضع التربية،وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر،ولا يعدهم بقهر الأعداء،ولا يعدهم بالتمكين في الأرض،ولا يعدهم شيئا من الأشياء في هذه الحياة ..مما يعدهم به في مواضع أخرى،ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه.

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا.هو «ما عِنْدَ اللَّهِ».فهذا هو الأصل في هذه الدعوة.وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية،ومن كل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة اللّه وقهر أعداء اللّه – حتى هذه الرغبة يريد اللّه أن يتجرد منها المؤمنون،ويكلوا أمرها إليه،وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء ..فقط.وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض،وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء ..ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر،ويقع التمكين،ويقع الاستعلاء ..ولكن هذا ليس داخلا في البيعة.ليس جزءا من الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا.وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء ..والابتلاء .. على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء.و لم يمنح اللّه المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية،إلا حين تجردوا هذا التجرد،ووفوا هذا الوفاء :

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ ، فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ ، فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ

يَخْطُب الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُكَ .ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيث جَابِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ ، فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ، قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ ."[15]

هكذا ..«الجنة» ..والجنة فقط! لم يقل:النصر والعز والوحدة.والقوة.والتمكين.والقيادة.والمال.

والرخاء – مما منحهم اللّه وأجراه على أيديهم – فذلك كله خارج عن الصفقة! وهكذا ..ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل ..لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أنهي أمرها،وأمضي عقدها.

و لم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربى اللّه الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض،وزمام القيادة،وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها،وكل رغباها،وكل شهواها،حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها،والمنهج الذي تحققه،والعقيدة التي تموت من أجلها.فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه،أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة[16].

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[15] – أخبار مكة للفاكهي – (٤ / ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

[16] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٨٦٤]

قال تعالى:{ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)} [الأنعام: ٤٠، ٤١]..

هذا طرف من وسائل المنهج الرباني في خطاب الفطرة الإنسانية بهذه العقيدة يضم إلى ذلك الطرف الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة وفيما قبلها وما بعدها كذلك في سياق السورة.

لقد خاطبها هناك بما في عوالم الأحياء من آثار التدبير الإلهي والتنظيم وبما في علم اللّه من إحاطة وشمول.

وهو هنا يخاطبها ببأس اللّه وبموقف الفطرة إزاءه حين يواجهها في صورة من صوره الهائلة،التي تهز القلوب،فيتساقط عنها ركام الشرك وتتعرى فطرتها من هذا الركام الذي يحجب عنها ما هو مستقر في أعماقها من معرفتها بربها،ومن توحيدها له أيضا:«قُلْ:أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ..أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ..إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» ..

إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول ..عذاب اللّه في الدنيا عذاب الهلاك والدمار أو مجيء الساعة على غير انتظار ..والفطرة حين تلمس هذه اللمسة وتتصور هذا الهول تدرك – ويعلم اللّه سبحانه أنها تدرك – حقيقة هذا التصور،وتهتز له لأنه يمثل حقيقة كامنة فيها،يعلم بارئها سبحانه أنها كامنة فيها ويخاطبها بها على سبيل التصور فتهتز لها وترتجف وتتعرى! وهو يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ليكون تعبيرا عن الصدق في فطرتهم:«أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ..إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق،المطابق لما في فطرتهم بالفعل،ولو لم تنطق به ألسنتهم:«بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ..فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ ..وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ».

بل تدعونه وحده وتنسون شرككم كله! ..إن الهول يعرّي فطرتكم – حينئذ – فتتجه بطلب النجاة إلى اللّه وحده.وتنسى أنها أشركت به أحدا.بل تنسى هذا الشرك ذاته ..إن معرفتها بربها هي الحقيقة المستقرة فيها فأما هذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها،بفعل عوامل أخرى.قشرة سطحية في الركام الذي ران عليها.فإذا هزها الهول تساقط هذا الركام،وتطايرت هذه القشرة،وتكشفت الحقيقة الأصيلة،وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها،ترجوه أن يكشف عنها الهول الذي لا يد لها به،ولا حيلة لها فيه ..هذا شأن الفطرة في مواجهة الهول يواجه السياق القرآني به المشركين ..فأما شأن اللّه – سبحانه – فيقرره في ثنايا المواجهة.فهو يكشف ما يدعونه إليه – إن شاء – فمشيئته طليقة،لا يرد عليها قيد.فإذا شاء استجاب لهم فكشف عنهم ما يدعون كله أو بعضه وإن شاء لم يستجب،وفق تقديره وحكمته وعلمه.هذا هو موقف الفطرة من الشرك الذي تزاوله أحيانا،بسبب ما يطرأ عليها من الانحراف،نتيجة عوامل شتى،تغطي على نصاعة الحقيقة الكامنة فيها ..حقيقة اتجاهها إلى ربها ومعرفتها بوحدانيته ..فما هو موقفها من الإلحاد وإنكار وجود اللّه أصلا؟

نحن نشك شكا عميقا – كما قلنا من قبل – في أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد في صورته هذه صادقون فيما يزعمون أنهم يعتقدونه.نحن نشك في أن هناك خلقا أنشأته يد اللّه،ثم يبلغ به الأمر حقيقة أن ينطمس فيه تماما طابع اليد التي أنشأته وفي صميم كينونته هذا الطابع،مختلطا بتكوينه متمثلا في كل خلية وفي كل ذرة! إنما هو التاريخ الطويل من العذاب البشع،ومن الصراع الوحشي مع الكنيسة،ومن الكبت والقمع،ومن إنكار الكنيسة للدوافع الفطرية للناس مع استغراقها هي في اللذائذ المنحرفة ..إلى آخر هذا التاريخ النكد الذي عاشته أوربا قرونا طويلة ..هو الذي دفع الأوربيين في هذه الموجة من الإلحاد في النهاية ..فرارا في التيه،من الغول الكريه .

ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخي ودفع النصارى بعيدا عن دينهم ليسلس لهم قيادهم،ويسهل عليهم إشاعة الانحلال والشقاء فيهم،وليتيسر لهم استخدامهم – كالحمير – على حد تعبير «التلمود» و«بروتوكولات حكماء صهيون» ..وما كان اليهود ليبلغوا

من هذا كله شيئا إلا باستغلال ذلك التاريخ الأوربي النكد،لدفع الناس إلى الإلحاد هربا من الكنيسة.

ومع كل هذا الجهد الناصب،المتمثل في محاولة «الشيوعية» – وهي إحدى المنظمات اليهودية – لنشر الإلحاد،خلال أكثر من نصف قرن،بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة،فإن الشعب الروسي نفسه لم يزل في أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة في اللّه ..ولقد اضطر «ستالين» الوحشي – كما يصوره خلفه خروشوف! – أن يهادن الكنيسة،في أثناء الحرب العالمية الثانية،وأن يفرج عن كبير الأساقفة،لأن ضغط الحرب كان يلوي عنقه للاعتراف للعقيدة في اللّه بأصالتها في فطرة الناس ..مهما يكن رأيه ورأي القليلين من الملحدين من ذوي السلطان حوله.

ولقد حاول اليهود – بمساعدة «الحمير» الذين يستخدمونهم من الصليبيين – أن ينشروا موجة من الإلحاد في نفوس الأمم التي تعلن الإسلام عقيدة لها ودينا.ومع أن الإسلام كان قد بهت وذبل في هذه النفوس ..فإن الموجة التي أطلقوها عن طريق «البطل» أتاتورك في تركيا ..انحسرت على الرغم من كل ما بذلوه لها – وللبطل – من التمجيد والمساعدة.وعلى كل ما ألفوه من الكتب عن البطل والتجربة الرائدة التي قام بها ..ومن ثم استداروا في التجارب الجديدة يستفيدون من تجربة أتاتورك،ألا يرفعوا على التجارب الرائدة راية الإلحاد.إنما يرفعون عليها راية الإسلام.كي لا تصدم الفطرة،كما صدمتها تجربة أتاتورك.ثم يجعلون تحت هذه الراية ما يريدون من المستنقعات والقاذورات والانحلال الخلقي،ومن أجهزة التدمير للخامة البشرية بجملتها في الرقعة الإسلامية.

غير أن العبرة التي تبقى من وراء ذلك كله،هي أن الفطرة تعرف ربها جيدا،وتدين له بالوحدانية،فإذا غشي عليها الركام فترة،فإنها إذا هزها الهول تساقط عنها ذلك الركام كله وتعرت منه جملة،وعادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة ..مؤمنة طائعة خاشعة ..أما ذلك الكيد كله فحسبه صيحة حق تزلزل قوائمه،وترد الفطرة إلى بارئها سبحانه.ولن

يذهب الباطل ناجيا،وفي الأرض من يطلق هذه الصيحة.ولن يخلو وجـــه الأرض مهمـــا جهدوا ممن يطلق هذه الصيحة.[17]



[17] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٥٠٦]

قال تعالى:« إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى،يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ،وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ. ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟» ..

إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد فضلا على أن يملك صنعها أحد! [18]معجزة الحياة نشأة وحركة ..وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية،وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة. والحياة الكامنة في الحبة والنواة،النامية في النبتة والشجرة،سر مكنون،لا يعلم حقيقته إلا اللّه ولا يعلم مصدره إلا اللّه ..وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها،وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها ..

تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول،تدرك الوظيفة والمظهر،وتجهل المصدر والجوهر،والحياة ماضية في طريقها. والمعجزة تقع في كل لحظة!!! ومنذ البدء أخرج اللّه الحي من الميت. فقد كان هذا الكون – أو على الأقل كانت هذه الأرض – و لم يكن هناك حياة .. ثم كانت الحياة .. أخرجها اللّه من الموات .. كيف؟ لا ندري! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة – عن طريق الأحياء – إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية وتتحول – وأصلها ذرات ميتة – إلى خلايا حية .. والعكس كذلك .. ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة! «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ،وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ» ..ولا يقدر إلا اللّه أن يصنع ذلك .. لا يقدر إلا اللّه أن ينشىء الحياة منذ البدء من الموات. ولا يقدر إلا اللّه أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية. ولا يقدر إلا اللّه على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة

[18] – يطنطن الماديون بأنه أمكن تحضير بعض المواد التي لم يكن يمكن تحضيرها إلا في تفاعلات كائن حي ..والفرق بين المادة العضوية والمادة الحية كبير ..كما أن هذه المادة المحضرة إنما صنعت من مواد مخلوقة و لم يخلقها البشر،ولا يستطيعون! (السيد رحمه الله)

.. في دورة لم يعلم أحد يقينا بعد متى بدأت،ولا كيف تـتم .. وإن هـي إلا فـروض ونظريات واحتمالات!!! لقد عجزت كل محاولة لمتفسير ظاهرة الحياة،على غير أساس أنها من خلق اللّه .. ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا .. «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ!» .. وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة،بدون التجـاء إلى الاعتراف بوجود اللّه .. ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا .. ولم تبـق منـها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد،ولا تدل على الإخلاص! وأقـوال بعـض «علمائهم» الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف باللّه،تصور حقيقة موقف «علمهم» نفسه من هذه القضية. ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتـات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين،عازفين عن هذا الدين،لأنه يثبـت «الغيب» وهم «علميون!» لا «غيبيون»! ..

ونختار لهم هؤلاء العلماء من «أمريكا»!!! يقول «فرانك أللن». (ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا) في مقال:نشأة العالم هل هـو مصادفة أو قصد؟ من كتاب:«اللّه يتجلى في عصر العلم» .. ترجمة الدكتور:الـدمرداش عبد المجيد سرحان.

.. «فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق،فلا بد أن تكون قد نشأت عـن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة؟

« إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبـق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق. وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب – مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم – ولقد تقـدمت دراسـة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا،حتى أصبحنا قـادرين علـى التنبؤ بحدوث بعض الظواهر،التي نقول:إنها تحدث بالمصادفة،والتي لا نسـتطيع أن نفسـر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد). وقد صرنا بفضل تقـدم هـذه

الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة [١٩]،وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة،وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان .. ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة :

«إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية. وهي تتكون من خمسة عناصر هي :

الكربون،والأدروجين،والنيتروجين،والأكسجين،والكبريت .. ويبلغ عدد الذرات في الجزء الواحد ٤٠،٠٠٠ ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة ٩٢ عنصرا،موزعة كلها توزيعا عشوائيا [٢٠]،فإن احتمال اجتماع هذه الناصر الخمسة،لكي تكون جزيئا من جزيئات البروتين،يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزء الواحد.

« وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا،فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد،إلا بنسبة ١ إلى ١٠ ١٦٠،أي بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة. وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات .. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .. ويتطلب تكوين هذا الجزء على سطح الأرض وحدها – عن طريق المصادفة – بلايين لا تحصى من السنوات،قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠ ٢٤٣ سنة).

---

[١٩] – نحن بتصورنا الإسلامي لا نعرف أن هناك «مصادفة» واحدة في هذا الوجود.وإنما هو قدر اللّه يخلق به كل شيء:«إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» وهناك سنن مطردة للوجود هي النواميس.وفي كل مرة تنفذ فيها السنة فإنها تنفذ بقدر – بدون جبرية آلية،وكذلك يقع أن يجري قدر اللّه بالخارقة لتلك النواميس – في ظروف معينة لحكمة خاصة – فالقانون العام والخارقة كلاهما يمر بقدر خاص في كل مرة يجري فيها ..ونحن حين نقتطف من حديث «العلماء» فإن هذا لا يعني الموافقة على كل ما يقولونه.(السيد رحمه الله)

[٢٠] – وهذه – كذلك – واحدة من خبط «العلماء» فليس هنالك توزيع عشوائي ..إنما هنالك توزيع مرسوم بقدر معلوم! (السيد رحمه الله)

«إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية. فكيف تتألف ذرات هذه الجزئيات؟

إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى،غير التي تتآلف بها،تصير غير صالحة للحياة. بـــل تصـــير في بعض الأحيان سموما. وقد حسب العالم الانجليزي:ج. ب. سيثر.. الطرق التي يمكـــن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات،فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠). وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئـــا بروتينيا واحدا.

«ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة،ولا تدب فيها الحياة إلا عند مـــا يحل فيها ذلك السر العجيب،الذي لا ندري من كنهه شيئا،إنه العقل اللانهائي[21]. وهو اللّه وحده،الذي استطاع أن يدرك [22] ببالغ حكمته،أن مثل هذا الجزء الـــبروتيني يصـــلح لأن يكون مستقرا للحياة،فبناه وصوره،وأغدق عليه سر الحياة» ..

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة إيوى وأخصائي في وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) في مقال:«المادية وحدها لا تكفي» من الكتاب نفسه :

«إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد،وهي التي تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا – بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكـــوّن الحياة. ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتـــها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشـــوائية والتجمعـــات والهجـــائن .. نقول:إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم. فهي لا تقوم على أســـاس المنطق والإقناع![23] ».

---

[21] – هذا التعبير «العقل اللانهائي» راسب من رواسب الفلسفة.يستخدمه الرجل لأنه من رواسب ثقافته! والمســـلم لا يعبر عن اللّه – سبحانه – إلا بما سمى به نفسه من أسمائه الحسنى ..(السيد رحمه الله)

[22] – وهذه كذلك!!! (السيد رحمه الله)

[23] – وقد أشار في مقاله من قبل إلى قول برتراند رسل بنشأة الحياة مصادفة وزوالها كذلك بجبرية آلية! (السيد رحمه الله)

ويقول:«ألبرت ما كومب ونشستر» (متخصص في علم الأحياء دكتوراه من جامعة تكساس. أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور ...) في مقال:«العلوم تدعم إيماني باللّه» من الكتاب نفسه :

«... وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء. وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة. وليس بين مخلوقات اللّه أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون.

«انظر إلى نبات برسيم ضئيل. وقد نما على أحد جوانب الطريق. فهل تستطيع أن تجد له نظيرا في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار،بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم – وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية.

«فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إن اللّه لم يصنعها هكذا وحدها،ولكنه خلق الحياة،وجعلها قادرة على صيانة نفسها،وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل. مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر .. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء،وأكثرها إظهارا لقدرة اللّه .. إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد،تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر. ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات:كل عرق،وكل شعيرة،وكل فرع على ساق،وكل جذر أو ورقة،يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا،فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات .. تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة[٢٤]).

[٢٤] – بإذن اللّه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.وبقدر اللّه الذي تتم به كل حركة في الوجود كله .(السيد رحمه الله)

وفي هذا القدر كفاية لنعود إلى الجمال المشرق في سياق القرآن:«ذلِكُمُ اللَّهُ» ..مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر .. هو اللّه .. وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده .. بالعبودية والخضوع والاتباع [٢٥]

« فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟» ..فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون!

إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيرا في القرآن الكريم - كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء - في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية،وآثارها الدالة على وحدة الخالق،لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود،الذي يدين له العباد بالاعتقاد في ألوهيته وحده،والطاعة لربوبيته وحده،والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية،والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله،والدينونة لشريعته كذلك وحدها ..

وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية. إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر - بإعطائهم العقيدة الصحيحة - لينتهي إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة.

وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة اللّه وحده وإخراجهم من عبادة العباد. وإلا أن تكون الدينونة في الحياة الدنيا،وفي شئون الحياة اليومية للّه وحده،وإلا أن يخرج الناس من سلطان المتسلطين،الذين يدعون حق الألوهية،فيزاولون الحاكمية في حياة البشر،ويصبحون آلهة زائفة وأربابا كثيرة فتفسد الحياة،حين يستعبد الناس فيها لغير اللّه!

ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة:«ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» ..ذلكم اللّه الذي يستحق الربوبية فيكم .. والرب هو المربي والموجه والسيد والحاكم ..ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا اللّه ..«فالِقُ الْإِصْباحِ،وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً،وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» ..

---

[٢٥] - يراجع كلمة «الرب» في كتاب:«المصطلحات الأربعة في القرآن» للسيد أبي الأعلى المودودي،أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.(السيد رحمه الله)

إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضا،وهو الذي جعل الليــــل للســـكون،وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدرة دوراتهما .. مقدرا ذلك كله بقدرته التي تهـــيمن على كل شيء،وبعلمه الذي يحيط بكل شيء.

وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة. وانبثاق النور في تلك الحركة،كانبثاق البرعم في هذه الحركة .. وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة،ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك ..

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى .. إن الإصـــباح والإمساء،والحركة والسكون،في هذا الكون – أو في هذه الأرض – ذات علاقة مباشـــرة بالنبات والحياة.

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس وكون القمر بهـــذا الحجـــم وبهذا البعد من الأرض وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة مـــن الحرارة .. هي تقديرات من «العزيز» ذي السلطان القادر «العليم» ذي العلم الشامل .. ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هـــذا النحو،ولمـــا انبثـــق النبـــت والشجر،من الحب والنوى ..

إنه كون مقدر بحساب دقيق. ومقدر فيه حساب الحياة،ودرجة هذه الحيـــاة،ونوع هـــذه الحياة .. كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه – وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقـــانون ومقدر بحساب ..

والذين يقولون:إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون. وأن الكون لا يحفلها. بل يبـــدو أنـــه يعاديها. وأن ضآلة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحي بهذا كلـــه. بـــل يقول بعضهم:إن هذه الضآلة توحي بأنه لو كان للكون إله ما عنى نفسه بهذه الحياة! ... إلى آخر ذلك اللغو،الذي يسمونه أحيانا «علما»! ويسمونه أحيانا «فلســـفة»! وهـــو لا يستأهل حتى مناقشته! إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة في نفوسهم ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التي تفرض نفسها عليهم! ويقرأ لهم الإنسان فيجد كأنما هم هـــاربون مـــن

مواجهة حقيقة قرروا سلفا ألا يواجهوها! .. إنهم هاربون من اللّه الذي تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة في كل اتجاه! وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا اللّه في نهايتها،فعادوا في ذعر إلى سكة أخرى. ليواجهوا اللّه - سبحانه - في نهايتها كذلك! إنهم مساكين! بائسون! لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذي تستذل به الرقاب .. فروا «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» .. ثم ما زالوا في فرارهم التقليدي حتى أوائل هذا القرن .. دون أن يتلفتوا وراءهم ليروا إن كانت الكنيسة ما تزال تتابعهم. أم انقطعت منها [٢٦] - كما انقطعت منهم - الأنفاس.

إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا .. فإلى أين الفرار؟ ..

يقول «فرانك أللن» العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عن نشأة الحياة :

« إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صورا عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية. فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها،فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار،وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام،فيكون في ذلك تتابع الفصول،الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا،ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة. ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة،ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل).

«ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا،منقضة بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة،ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات،حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها. والمطر مصدر الماء العذب،ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة» ..

[٢٦] - يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

إن الأدلة «العلمية» تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا عـــن تعليل نشأة الحياة،بما يلزم لهذه النشأة – وللنمو والبقاء والتنوع بعدها – من موافقـــات لا تحصى في تصميم الكون .. منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق،ووراءها من نوعها كثير. فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم.الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هـــدى. والذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ..[٢٧]



[٢٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٥٨٦]

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها
أولا:في تقريرات اللّه – سبحانه – عنها،باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وباعتبار أن هذه التقريرات – بسبب كونها ربانية – لا تتعرض لمثل ما تتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء ..
وثانيا:في المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات اللّه سبحانه!
إن اللّه سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم ..وهو تارة يتحدث عنهم – سبحانه – وحدهم،وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين باعتبار أن هنالك وحدة هدف – تجاه الإسلام والمسلمين – تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين.
وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين ..والنصوص التي تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق ..وهذه نماذج منها ..
«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» ...(البقرة:١٠٥).
«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ،مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ...(البقرة:١٠٩).
«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ...(البقرة:١٢٠).
«وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» ...(آل عمران:٦٩).
«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» ...(آل عمران:٧٢ – ٧٣).
«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ» ...(آل عمران:١٠٠) ...

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ ...»...(النساء:٤٤ – ٤٥).

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ...(النساء:٥١).

وفي هذه النماذج وحدها ما يكفي لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين ...فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.وهم يحددون موقفهم النهائي من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى،ولا يرضون عنهم ولا يسالموهم إلا أن يتحقق هذا الهدف،فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا.وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين! ...إلخ.

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها اللّه – سبحانه – في قوله تعالى: «وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ...(البقرة:٢١٧).

«وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً» ...(النساء:١٠٢). «إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» ...(الممتحنة:٢). «وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:٨).

«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:١٠).

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين،وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين،هي بعينها – وتكاد تكون بألفاظها – هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك ..مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية،تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة،لا على وصف حالة مؤقتة،كقوله تعالى في شأن المشركين:« وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ..

وقوله تعالى في شأن أهل الكتاب:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أي تأويل للنصوص،أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة! فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات،متمثلة في مواقف أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – من الإسلام وأهله،على مدار التاريخ،تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة،ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.

إننا إذا استثنينا حالات فردية – أو حالات جماعات قليلة – من التي تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخي بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين والاقتناع بصدق رسول اللّه – ﷺ– وصدق هذا الدين.ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين ..وهي الحالات التي أشرنا إليها فيما تقدم ..فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة،إلا تاريخا من العداء العنيد،والكيد الناصب،والحرب الدائبة،التي لم تفتر على مدار التاريخ ..

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة! وليست هذه الظلال مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل.ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ ..

لقد استقبل اليهود رسول اللّه – ﷺ– ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولا يعرفون صدقه،ودينا يعرفون أنه الحق ..

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود ..شككوا في رسالة رسول اللّه – ﷺ– وهم يعرفونه واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو وبالتهم

والأكاذيب.وما فعلوه في حادث تحويل القبلة،وما فعلوه في حادث الإفك،وما فعلـــوه في كل مناسبة،ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم ..وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتترل القرآن الكريم.وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحـــزاب والتوبـــة وغيرهـــا تضمنت من هذا الكثير [٢٨]:«وَلَمَّا جاءَهُمْ كتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ – وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا – فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ،فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَـــى الْكافِرِينَ.بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ – بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ – فَباؤُ بِغَضَـــبٍ عَلَـــى غَضَـــبٍ،وَلِلْكافِرِينَ عَـــذابٌ مُهِـــينٌ» ...(البقرة:٨٩ – ٩٠).

«وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـــوا الْكِتـــابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ...(البقرة:١٠١).

« سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ:ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها.قُـــلْ:لِلَّـــهِ الْمَشْـــرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ...(البقرة:١٤٢).

«يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَـــقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟» ...(آل عمران:٧٠ – ٧١).

«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُـــرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ...(آل عمران:٧٢).

«وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِـــنَ الْكِتـــابِ وَمـــا هُـــوَ مِـــنَ الْكِتابِ،وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُـــمْ يَعْلَمُونَ».(آل عمران:٧٨).

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ؟ قُـــلْ يـــا أَهْـــلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» ...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).

---

[٢٨] – تراجع مقدمات سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في هذه الطبعة المنقحة من الظلال.

«يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ! فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ
،
كذلك التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي اللّه عنه – وانتشر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير ..
وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي – رضي اللّه عنه – ومعاوية ..وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير ..وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية ..
فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي وهم حماة كل وضع من الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي! ذلك شأن اليهود،فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب،فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شأن اليهود! لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون ..ولكن ما إن ظهر الإسلام في الجزيرة وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «المسيحية» وهو ركام من الوثنيات القديمة ،والأضاليل الكنسية،متلبسا ببقايا من كلمات المسيح – عليه السلام – وتاريخه [٢٩] ..حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة وعداوات وثارات عميقة،ليواجهوا هذا الدين الجديد.
ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا على هذا الدين.وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول اللّه – ﷺ– إلى عامل بصرى من قبل الروم – وكان المسلمون يؤمنون الرسل ولكن النصارى غدروا برسول النبي ﷺوقتلوه – مما جعل رسول اللّه – ﷺ– يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة:زيد بن حارثة،وجعفر بن أبي طالب،وعبد اللّه بن رواحة في غزوة «مؤتة» فوجدوا تجمعا للروم تقول الروايات عنه:إنه مائة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية

[٢٩] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين».«دار الشروق».)

النصرانية مائة ألف أخرى وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل.وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة تبوك التي يدور عليها معظم هذه السورة (وسيجيء تفصيل القول فيها في موضعه إن شاء اللّه تعالى).ثم كان جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول اللّــه – ﷺ– قبيل وفاته ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر – رضي اللّه عنه – إلى أطراف الشام لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هذا الدين! ثم اشتعل مرجل الحقــد الصليبي منذ موقعة اليرموك الظافرة،التي أعقبها انطلاق الإســلام لتحريــر المســتعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام ومصر وشمال إفريقية وجزر البحر الأبيض.ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم في التاريخ،لم تكن هي وحدها الــتي شــنتها الكنيسة على الإسلام ..لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير ..لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد ..منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفــرس وأخــذ النصارى يعينون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة.

ثم بعد ذلك في «مؤتة».ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة ..ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عند ما زحفت الصليبية على القاعدة الإســلامية في أوربــة،وارتكبت مــن الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيرا من قبــل ..وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة الــتي لا تتحــرج ولا تتذمم ولا تراعي في المسلمين إلّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون – وهو فرنسي مسيحي –:

« كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معســكر المســلمين،ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه،بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم.ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب،مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل،الذي رحم نصارى القدس،فلم

يمسهم بأذى،والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد،أثناء مرضهما »[٣٠].

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا) [٣١] يقول:«ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع،فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها.وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون،ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء! أما صلاح الدين،فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين،ووفى لهم بجميع عهوده،وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم،حتى أن الملك العادل،شقيق السلطان،أطلق ألف رقيق من الأسرى،ومنّ على جميع الأرمن،وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة،وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال في الظلال لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية – على مدار التاريخ – ولكن يكفي أن نقول:إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية.ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثا.حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم،فقتل منهم اثنا عشر ألفا وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة! ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص،حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعا وعطشا،فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد!

ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في اريترية وفي قلب الحبشة،وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي،ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال! ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي! ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه.

«لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة.ولكننا بعد اختبار،لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ..لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودي،والخطر الأصفر،وبالخطر البلشفي.إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه.إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا،وعلى هذا يكون كل

[٣٠] – نقلا عن كتاب:«الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للأستاذ علي علي منصور.

[٣١] – نقلا عن كتاب:«الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للأستاذ علي علي منصور.

مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا.أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها.ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام،وفي قوته على التوسع والإخضاع،وفي حيويته ..إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي[٣٢]».

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال ..وقد تحدثنا من قبل مرارا في أجزاء الظلال السابقة – بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة – عن طبيعة هذه المعركة،الطويلة،ومسائلها وأشكالها.فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة [٣٣]

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع – بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان،وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة التي تحمل هذا الإعلان العام وتنطلق به في الأرض كلها – أن هذه الأحكام الأخيرة الواردة في هذه السورة،هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة وأنها ليست أحكاما محددة بزمان،ولا مقيدة بحالة.وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابسات التي نزلت فيها.فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلامي الحركية،التي تواجه الواقع البشري مواجهة واقعية،بوسائل متجددة،في المراحل المتعددة.

وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها في الجزيرة وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة المتمثلة في غزوة تبوك،لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله – وهي الغزوة التي يقوم عليها محور السورة – ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية

---

[٣٢] – من كتاب جورج براون نقلا عن كتاب:«التبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتور مصطفى خالدي،والدكتور عمر فروخ.

[٣٣] – يراجع كتاب:«الاستعمار والتبشير» للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ.وكتاب:«الغارة على العالم الإسلامي» للاستاذين اليافي ومحب الدين الخطيب.وكتاب:«الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين.وكتاب:«هل نحن مسلمون» لمحمد قطب.«دار الشروق».

معينة.إنما كان وليد حقيقة دائمة مستقرة كما أن حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخية معينة.فهي ما تزال معلنة ولن تزال ..إلا أن يرتد المسلمون عن دينهم تماما! .. وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد،بشتى الوسائل على مدار التاريخ! ومن ثم فهذه الأحكام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمان ولا مقيدة بمكان ..ولكن العمل بالأحكام إنما يتم في اطار المنهج الحركي الإسلامي،الذي يجب أن يتم الفقه به،قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها.

وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وضعفهم وانكسارهم على دين اللّه القوي المتين! إن الأحكام الفقهية في الإسلام كانت – وستظل دائما – وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامي.والنصوص لا يمكن فهمها إلا باستصحاب هذه الحقيقة ..وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ والنصوص في صورتها الحركية وفق المنهج الإسلامي.ولا بد من هذا القيد:«الحركة وفق المنهج الإسلامي» فليست هي الحركة المطلقة خارج المنهج بحيث نعتبر «الواقع البشري» هو الأصل أيا كانت الحركة التي أنشأته،ولكن «الواقع البشري» يصبح عنصرا أساسيا في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته.[٣٤]



[٣٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٩٧]

إن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم،واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم.

لا تستقيم أولا إزاء هذا الكون الذي يعيشون فيه،ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه ..وهم حين يضطرب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية يروحون يؤلهون الأشياء والأحياء - بل يؤلهون الأشباح والأوهام! - ويعبدون أنفسهم لها في صور مضحكة،ولكنها بائسة!،ويقدمون لها - بوحي من الكهان والمنتفعين بأوهام العوام في كل زمان وفي كل مكان - خلاصة كدهم من الرزق الذي أعطاهم اللّه.بل إنهم ليقدمون لها فلذات أكبادهم كما يقدمون لها أرواحهم في بعض الأحيان ..وهي أشياء وأحياء لا حول لها ولا قوة،ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا ..وتضطرب حياتهم كلها،وهم يعيشون بين الهلع والجزع من هذه الأشياء والأحياء وبين التقرب والزلفى لمخلوقات مثلهم،عبوديتها للّه كعبوديتهم ..وذلك كما قال اللّه تعالى عنهم:«وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً.فَقالُوا:هذا لِلَّهِ - بِزَعْمِهِمْ - وَهذا لِشُرَكائِنا! فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ،وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ! ساءَ ما يَحْكُمُونَ! وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ - وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ - وَقالُوا:هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ - بِزَعْمِهِمْ - وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها،وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ! - سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ - وَقالُوا:ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا،وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ - قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ،وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ،قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ »[٣٥].

فهذه نماذج من تكاليف العبودية لغير اللّه في الأموال والأولاد التي تقدم لمخلوقات من خلق اللّه.أشياء أو أحياء ما أنزل اللّه بها من سلطان! كذلك لا تستقيم حياة البشر إزاء

[٣٥] - يراجع تفسير هذه الآيات من سورة الأنعام ص ١٢١٣ - ١٢٢٨ من الجزء الثامن.

بعضهم البعض بدون استقامة حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم،وفي حياهم وواقعهم ..إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الحقيقية الكاملة لا يمكن أن تتحقق في ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد اللّه سبحانه بالربوبية والقوامة والحاكمية ولا يجعـــل لـــه وحده حق الهيمنة على حياة الناس في الدنيا والآخرة،في السر والعلانية ولا يعتـــرف لـــه وحده بحق التشريع والأمر والحاكمية في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ..

والواقع البشري على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها.فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة للّه وحده – اعتقادا ونظاما – ودانوا لغير اللّه من العباد – سواء كانت هذه الدينونة،بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع – إلا كانت العاقبة هـــي فقدالهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم! والتفسير الإسلامي للتاريخ يرد ذل المحكـــومين للطواغيت،وسيطرة الطواغيت عليهم،إلى عامل أساسي هو فسوق المحكومين عـــن ديـــن اللّه،الذي يفرد اللّه سبحانه بالألوهية،ومن ثم يفـــرده بالربوبيـــة والســـلطان والقوامـــة والحاكمية.فيقول اللّه سبحانه عن فرعون وقومه:«وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ:يـــا قَـــوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي؟ أَفَلا تُبْصِرُونَ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هـــذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ؟ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ،أَوْ جاءَ مَعَـــهُ الْمَلائِكَـــةُ مُقْتَرِنِينَ! فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» ..

فيرد استخفاف فرعون لهم إلى أنهم فاسقون.فما يستخف الحاكم الطاغي قومـــه وهـــم مؤمنون باللّه موحدون لا يدينون لسواه بربوبية تزاول القوامة والحاكمية! ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة للّه وحده،فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته،قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره.العبودية،التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم،مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم والتي ظنوا في بعضها أنها تكفـــل لهـــم الإنســـانية والحرية والكرامة! لقد هربت أوربا من اللّه – في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف! [٣٦]– وثارت على اللّه – سبحانه – في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون

[٣٦] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين». «دار الشروق».

إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم - ومصـــالحهم كـــذلك - في ظـــل الأنظمـــة الفرديـــة (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلـــها لهـــم الدســـاتير الوضعية،والأوضـــاع النيابيـــة البرلمانيـــة،والحريات الصحفية،والضـــمانات القضـــائية والتشريعية،وحكم الأغلبية المنتخبة ..إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمـــة ..ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان «الرأسمالية» ذلك الطغيان الذي أحـــال كل تلك الضمانات وكل تلك التشكيلات،إلى مجرد لافتـــات،أو إلى مجـــرد خيـــالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال،فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنـــها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم،في معزل عن اللّه سبحانه!!! ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها «رأس المال» و«الطبقة!» إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة «الرأسمـــاليين» الدينونـــة لطبقة «الصعاليك»! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين! وفي كـــل حالة وفي كل وضع وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر،دفعوا من أموالهم ومن أرواحهـــم الضريبة الفادحة.دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالة! إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن للّه وحده،تكن لغير اللّه ..والعبودية للّه وحده تطلق الناس أحرارا كراما شـــرفاء أعليـــاء ..والعبودية لغير اللّه تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم ..ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية! من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلـــك العناية في رسالات اللّه - سبحانه - وفي كتبه ..

وهذه السورة نموذج من تلك العناية ..فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصـــنام والأوثـــان في الجاهليات الساذجة البعيدة.ولكنها تتعلق بالإنسان كله في كل زمان وفي كـــل مكـــان

وتتعلق بالجاهليات كلها ..جاهليات ما قبل التاريخ.وجاهليات التاريخ.وجاهلية القـــرن العشرين.وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد! [٣٧]

ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تقرير ألوهيـــة اللّـــه – ســـبحانه – وربوبيته وحده للعباد:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّـــا أَنَـــا فَاعْبُدُونِ».

وكان ختام هذه السورة التي نواجهها:« قُلْ:يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ،وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُـــونَ مِـــنَ الْمُؤْمِنِينَ.وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً،وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.وَلا تَـــدْعُ مِـــنْ دُونِ اللَّهِ،ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ،فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ.وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ،وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ،يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِـــنْ عِبـــادِهِ،وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.قُلْ:يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ،فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّمـــا يَهْتَـــدِي لِنَفْسِهِ،وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها.وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ،وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» .. [٣٨]



[٣٧] – يراجع كتاب:«الإسلام والجاهلية» للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان. وكتاب:«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب. «دار الشروق».

[٣٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٧٨]

إن الدينونة للّه تحرر البشر من الدينونة لغيره وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية،هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر – غير النظام الإسلامي – يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية،في صورة من صورها الكثيرة ...سواء عبودية الاعتقاد،أو عبودية الشعائر،أو عبودية الشرائع ..فكلها عبودية وبعضها مثل بعض تخضع الرقاب لغير اللّه بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير اللّه.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين! لا بد للناس من دينونة.والذين لا يدينون للّه وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير اللّه في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط.ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة :«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعامُ،وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» ...(محمد:١٢) ولا يخسر الإنسان شيئا كأن يخسر آدميته،ويندرج في عالم البهيمة،وهذا هو الذي يقع حتما بمجرد التملص من الدينونة للّه وحده،والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة.

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد ..يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم،لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم – سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم،أو في طبقة حاكمة،أو في جنس حاكم – فالنظرة على المستوي الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من اللّه وحده،ولا يتقيد بشريعة اللّه لا يتعداها ..

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين ..فهذه هي الصورة الصارخة،ولكنها ليست هي كل شيء! ..إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة! ونضرب مثالا لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلا! أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جدا من

البشر؟ ..كل الذين يسموهم متحضرين ..! إن الزي المفروض من آلهة الأزياء – سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات ...إلخ ..ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي ولا لجاهلية أن يفلت منها أو يفكر في الخروج عنها! ولو دان الناس – في هذه الجاهلية «الحضارية!» للّه بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عبادا متبتلين! ..فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضا؟! وإن الإنسان ليبصر أحيانا بالمرأة المسكينة،وهي تلبس ما يكشف عن سوآتها،وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها،وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثارا للسخرية! ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها ردا،ولا تقوى على رفض الدينونة لها،لأن المجتمع كله من حولها يدين لها.فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هي هذه؟ وكيف تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي تلك؟! وليس هذا إلا مثلا واحدا للعبودية المذلة حين لا يدين الناس للّه وحده وحين يدينون لغيره من العبيد.

وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريهة المذلة لحاكمية البشر للبشر،ولعبودية البشر للبشر! وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم،التي تصبح كلها ولا عاصم لها عند ما يدين العباد للعباد،في صورة من صور الدينونة ..سواء في صورة حاكمية التشريع،أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد،أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور ..

إن الدينونة لغير اللّه في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورا منها وتمثل أوهام العوام المختلفة صورا منها وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأموال – وأحيانا من الأولاد! – تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة،ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب! ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار! ومن ..ومن ..من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء،حتى تتقطع

أعناقهم وتتوزع جهودهم،وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء! وقد مثلنا لتكاليف الدينونة لغير اللّه في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات! فينبغي أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع – إلى جانب الأعراض والأخلاق – في سبيل هذه الأرباب! إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعطور والأصباغ وعلى تصفيف الشعر وكيه وعلى الأقمشة التي تصنع منها الأزياء المتقلبة عاما بعد عام،وما يتبعها من الأحذية المناسبة والحلي المتناسقة مع الزي والشعر والحذاء! ...إلى آخر ما تقضي به تلك الأرباب النكدة ..إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده لملاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال.ومن ورائها اليهود أصحاب رؤوس الأموال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب! ولا يملك الرجل ولا المرأة وهما في هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء! وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية ..

وما من أضحية يقدمها عابد اللّه للّه،إلا ويقدم الذين يدينون لغير اللّه أضعافها للأرباب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض ..

وتقام أصنام من «الوطن» ومن «القوم» ومن «الجنس» ومن «الطبقة» ومن «الإنتاج» ...ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب ..

وتدق عليها الطبول وتنصب لها الرايات ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد.وإلا فالتردد هو الخيانة،وهو العار ..وحتى حين يتعارض العرض.مع متطلبات هذه الأصنام،فإن العرض هو الذي يضحى ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام،ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام! إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل اللّه ليعبد اللّه وحده في الأرض وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام،ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده اللّه للإنسان ..إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل اللّه ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير اللّه! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة

الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل اللّه،عليهم أن يتأملوا مـــاذا تكلفهـــم الدينونة لغير اللّه في الأنفس والأموال والأولاد،وفوقها الأخلاق والأعراض ..إن تكاليف الجهاد في سبيل اللّه في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغـــير اللّه وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار! وأخيرا فإن توحيد العبـــادة والدينونـــة للّـــه وحده،ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة.كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض،وترقيتها،وترقية الحياة فيها.

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء ..وهي أنه كلما قـــام عبد من عبيد اللّه،ليقيم من نفسه طاغوتا يعبّد الناس لشخصه من دون اللّه ..احتاج هـــذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقـــات أولا لحمايـــة شخصه.وثانيا لتأليه ذاته.واحتاج إلى حواش وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمـــده،وترتل ذكره،وتنفخ في صورته «العبدية» الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان «الألوهية» العظيمة! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة! وإطلاق الترانيم والتراتيـــل حولها.وحشد الجموع – بشتى الوسائل – للتسبيح باسمها،وإقامة طقوس العبادة لها ...!

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا.لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل.وما تني تحتـــاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد! وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقـــات وأموال – وأرواح أحيانا وأعراض! – لو أنفـــق بعضـــها في عمـــارة الأرض،والإنتـــاج المثمر،لترقية الحياة البشرية وإغنائها،لعاد على البشرية بالخير الوفير ..ولكن هذه الطاقـــات والأموال – والأرواح أحيانا والأعراض – لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون للّه وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتـــاج من جراء تنكبها عن الدينونة للّه وحده وعبادة غيره من دونه ..وذلك فوق خســـارتها في

الأرواح والأعراض،والقيم والأخلاق.وفوق الذل والقهر والدنس والعار! وليس هـذا في نظام أرضي دون نظام،وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات.

« ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة للّه وحده،فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته،قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره.العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم،مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم،والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة.

«لقد هربت أوربا من اللّه – في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف [39]– وثارت على اللّه – سبحانه – في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم – ومصالحهم كذلك – في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية،والأوضاع النيابية البرلمانية،والحريات الصحفية،والضمانات القضائية والتشريعية،وحكم الأغلبية المنتخبة ...إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة ..ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان «الرأسمالية» ذلك الطغيان الذي أحال كل تلكالضمانات،وكل تلك التشكيلات،إلى مجرد لافتات،أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال،فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم،في معزل عن اللّه سبحانه!!! «ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها «رأس المال» و«الطبقة» إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة «الرأسماليين» الدينونة لطبقة «الصعاليك»! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين! «وفي كل حالة،وفي كل وضع،وفي

[39] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين». نشر «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

كل نظام،دان البشر فيه للبشر،دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة.دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال.

«إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن للّه وحده تكن لغير اللّه ..والعبودية للّه وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء ..والعبودية لغير اللّه تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم.ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

«من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات اللّه – سبحانه – وفي كتبه ..وهذه السورة نموذج من تلك العناية ..فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة.ولكنها تتعلق بالإنسان كله،في كل زمان وفي كل مكان وتتعلق بالجاهليات كلها ..جاهليات ما قبل التاريخ،وجاهليات التاريخ.وجاهلية القرن العشرين.وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد»[٤٠].

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية:أنه يتجلى بوضوح من التقريرات القرآنية بجملتها – وهذه السورة نموذج منها – أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية – التي يعبر عنها في هذه السورة بالعبادة – هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام! إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم.وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد.وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق ..

ثم هي بعد – بعد ذلك لا قبله – قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام.وتنفذ فيها الأحكام.

وكذلك فإن قضية «العبادة» ليست قضية شعائر وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة ..وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين ..واستحقت كل هذه الرسل والرسالات.واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات.

---

[٤٠] – مقتطفات من الجزء الحادي عشر ص ١٧٥٤ – ١٧٥٥ في التعليق على سورة يونس. وهي بذاتها تصلح هنا للتعقيب على سورة هود!

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية:

لقد بينا من قبل في التعقيب على قصة نوح [٤١] أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم عليه السلام أبي البشر الأول،ثم على يدي نوح – عليه السلام – أبي البشر الثاني ..ثم بعد ذلك على يدي كل رسول ..وأن الإسلام يعني توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر،وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع:أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع.

ثم بينا كذلك أن الجاهلية – سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع – أو هما معا – كانت تطرؤ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل – عليهم صلوات اللّه وسلامه – وكانت تفسد عقائدهم وتصوراهم،كما تفسد حياقم وأوضاعهم بالدينونة لغير اللّه – سبحانه – سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب،أو روح أو أرواح شتى أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر:كاهن أم ساحر أم حاكم ..فكلها سواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك،والخروج من الإسلام إلى الجاهلية.

ومن هذا التتابع التاريخي – الذي يقصه اللّه سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه ..

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية،ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم – وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ – ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح! – وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأسا في إحدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أخناتون مثلا في الديانة المصرية

[٤١] – ص ١٨٨٢ – ١٨٨٦ من هذا الجزء. (السيد رحمه الله)

القديمة فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد – ولو على سبيل الاحتمال – وقد جـاء أخناتون في مصر بعد عهد يوسف – عليه السلام – وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم – حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف –:« إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ.وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ،ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ.يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ؟ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ،أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ...(يوسف:٣٧ – ٤٠)

وهم إنما يفعلون ذلك،لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الديني،بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمي في كل صوره في فترة من فترات التاريخ.فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها،للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها.ومن أجل هذا جاء منهجا منحرفا منذ البدء،لأنه يتعمد الوصول سلفا إلى نتائج معينة،قبل البدء في البحث! وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر في طريقه.لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه،والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس،حتى صارت من أصول المنهج!

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه.هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع ..

على أنه أيا كان المنهج وأيا كانت النتائج التي يصل إليها فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم ..وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول اللّه سبحانه في مسألة من المسائل فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه «مسلم» أن يأخذ بتلك النتائج.

ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية،وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري،وسبق التوحيد للتعدد والتثنية ..قاطعة،وغير قابلة للتأويل.فهي مما يقال عنه:إنه معلوم من الدين بالضرورة.

وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر،أن يختار بين قول اللّه سبحانه وقول علماء الأديان.أو بتعبير آخر:أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام! لأن قول اللّه في هذه القضية منطوق وصريح،وليس ضمنيا ولا مفهوما! وعلى أية حال فإن هذا ليس موضوعنا الذي نستهدفه في هذا التعقيب الأخير ..إنما نستهدف هنا رؤية الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري والإسلام والجاهلية يتعاوران البشرية والشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين لهذا المخلوق المزدوج الطبيعة والاتجاه،ويجتال الناس عن الإسلام بعد أن يعرفوه،إلى الجاهلية فإذا بلغت هذه الجاهلية مداها بعث اللّه للناس رسولا يردهم إلى الإسلام.ويخرجهم من الجاهلية.وأول ما يخرجهم منه هو الدينونة لغير اللّه سبحانه من الأرباب المتفرقة ..وأول ما يردهم إليه هو الدينونة للّه وحده في أمرهم كله،لا في الشعائر التعبدية وحدها،ولا في الاعتقاد القلبي وحده.

إن هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم،وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك ..

إن البشرية اليوم – بجملتها – تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول – محمد ﷺ– وهي جاهلية تتمثل في صور شتى:

بعضها يتمثل في إلحاد باللّه سبحانه،وإنكار لوجوده ..فهي جاهلية اعتقاد وتصور،كجاهلية الشيوعيين.

وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود اللّه سبحانه،وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة،كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم ..وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك.

وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود اللّه سبحانه،وأداء للشعائر التعبدية.مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه.ومع شرك كامل في

الدينونة والاتباع والطاعة.وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم «مسلمين» ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه - بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومع استسلامهم ودينونتهم لغير اللّه من العبيد! وكلها جاهلية.وكلها كفر باللّه كالأولين.أو شرك باللّه كالآخرين [٤٢] ..

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة،وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة،كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ..وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي،والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة.

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرى،والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها.على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي:وهو الاعتقاد بألوهية اللّه وحده،وتقديم الشعائر التعبدية للّه وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها للّه وحده ..وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك.وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعا،يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية،ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعا ..

إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام.فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذي يواجه الجاهلية،ليرد الناس إلى اللّه مرة أخرى،ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ..

ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوي من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية ..فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة

---

[٤٢] - يراجع فصل:«لا إله إلا اللّه منهج حياة» في كتاب:«معالم في الطريق» نشر «دار الشروق» (السيد رحمه الله)

الحرجة من تاريخ البشرية وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي - وهي تحسبه مجتمعا مســـلما - وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية،بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا،لا من حيث تزعم! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع ..بعيدة جدا ..[٤٣]



[٤٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٧١]

إنَّ اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الــذي صدر عنه الوجود.

ومن ثم اتصاله بالكون الصــادر عــن ذات المصــدر،وبالنواميس الــتي تحكــم هــذا الكون،وبالقوى والطاقات المذخورة فيه.والانطلاق حينئذ من حدود ذاتــه الصــغيرة إلى رحابة الكون الكبير.ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولــة.ومــن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا اللّه[٤٤].

وفضلا عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق،فإنه يمنحــه إلى جانب هذا كله متاعا بالوجود وما فيه من جمال،ومن مخلوقات تتعاطف أرواحهــا مــع روحه.فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان ..وهــي سعادة رفيعة،وفرح نفيس،وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب.وهو كســب لا يعدله كسب.وفقدانه خسران لا يعدله خسران ..ثم إن مقومات الإيمــان هــي بــذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ..

التعبد لإله واحد،يرفع الإنسان عن العبودية لسواه،ويقيم في نفسه المســاواة مــع جميــع العباد،فلا يذل لأحد،ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار ..ومن هنا الانطــلاق التحــرري الحقيقي للإنسان.الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومــن تصــور الحقيقــة الواقعــة في الوجود.إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد.فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقا ذاتيا،لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد.

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمــه وموازينــه واعتباراتــه وشرائعه وقوانينه،وكل ما يربطه باللّه،أو بالوجود،أو بالناس.فينتفي مــن الحيــاة الهــوى والمصلحة،وتحل محلهما الشريعة والعدالة.

---

[٤٤] - يراجع فصل العقيدة والحياة من كتاب:السلام العالمي والإسلام. (السيد رحمه الله)

وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه،وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها،وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة ..ولو كان فردا واحدا،لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من اللّه مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام[٤٥].

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق،وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة،مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد،وبلا وساطة في الطريق.ويودع القلب نورا،والروح طمأنينة،والنفس أنسا وثقة.وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق،والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء! والاستقامة على المنهج الذي يريده اللّه.فلا يكون الخير فلتة عارضة،ولا نزوة طارئة،ولا حادثة منقطعة.

إنما ينبعث عن دوافع،ويتجه إلى هدف،ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في اللّه،فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح،والراية الواحدة المتميزة.كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين.

والاعتقاد بكرامة الإنسان على اللّه،يرفع من اعتباره في نظر نفسه،ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه اللّه إليها.وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه ..أنه كريم عند اللّه ..وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه،ويرده إلى منبت حقير،ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى ..هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة! ومن هنا كانت إيحاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني،فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع،ليس فيه ما يستغرب،ومن ثم ليس فيه ما يخجل ..وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء![٤٦]

---

[٤٥] - يراجع تفسير سورة «عَبَسَ وَتَوَلَّى» في هذا الجزء ص ٣٨٢١. (السيد رحمه الله)

[٤٦] - يراجع كتاب:الإنسان بين المادية والإسلام (لمحمد قطب) «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على اللّه.ثم برقابة اللّه على الضمائر واطلاعه على السرائر.وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما،ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره.والمؤمن يحس وقع نظر اللّه – سبحانه – في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز.فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه! والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم،يكره الشر ويحب الخير.ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة،وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية،ومن رزانة وتدبر.وهي ليست تبعة فردية فحسب،إنما هي كذلك تبعة جماعية،وتبعة تجاه الخير في ذاته،وإزاء البشرية جميعا ..أمام اللّه ..وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله،فيكبر في عين نفسه،ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله ..إنه كائن له قيمة في الوجود،وعليه تبعة في نظام هذا الوجود ..والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا – وهو بعض إيحاءات الإيمان – واختيار ما عند اللّه،وهو خير وأبقى.«وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» ..والتنافس على ما عند اللّه يرفع ويطهر وينظف ..يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن ..بين الدنيا والآخرة،والأرض والملأ الأعلى.مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة.فهو يفعل الخير لأنه الخير،ولأن اللّه يريده،ولا عليه ألا يدرّ الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود.فاللّه الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت – سبحانه – ولا ينسى،ولا يغفل شيئا من عمله.والأرض ليست دار جزاء.والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف.ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب.وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا،لا دفعة طارئة،ولا فلتة مقطوعة.وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر.سواء تمثل في طغيان طاغية،أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية،أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته.هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق

أطماعه،وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير،وشهود انتصار الحق على الباطـــل! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا[47].

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير،الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير،وتتعلق به كـــل ثمرة من ثماره،وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته،صائر إلى ذبول وجفاف.وإلا فهي ثمـــرة شيطانية،وليس لها امتداد أو دوام! وهو المحور الذي تشد إليـــه جميـــع خيـــوط الحيـــاة الرفيعة.وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء،ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات ..

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال،ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون،وتنسلك في طريق واحد،وفي حركة واحدة،لها دافع معلوم،ولها هدف مرسوم ..ومن ثم يهدر القـــرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل،ولا يشد إلى هذا المحـــور،ولا ينبـــع مـــن هـــذا المنهج.والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة ..جاء في سورة إبـــراهيم :«مَثَـــلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ.لا يَقْـــدِرُونَ مِمَّـــا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ» ..وجاء في سورة النور :

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً،حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً» ..وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله،ما لم يستند إلى الإيمان،الذي يجعل لـــه دافعا موصولا بمصدر الوجود،وهدفا متناسقا مع غاية الوجود.وهذه هي النظرة المنطقيـــة لعقيدة ترد الأمور كلها إلى اللّه.فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه[48].

---

[47] - يراجع تفسير سورة البروج في هذا الجزء ص ٣٨٧١. (السيد رحمه الله)

[48] - جاء في تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لقوله تعالى:«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ.وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» ..«وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ،ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ،لا أصل له» ..وها نحن أولاء نرى أن المسألة لم تجيء من إجماع ،ولكن من نصوص قرآنية صريحة هي أصل بذاتها. (السيد رحمه الله)

قلت:لم يرد استثناء بذلك إلا لأبي طالب عم النبي ﷺ،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِىَّ - ﷺ - يَقُـــولُ « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ،كَمَا يَغْلِى الْمِرْجَـــلُ وَالْقُمْقُـــمُ »صحيح البخارى- المكنز [٢١ /٤٦٦](٦٥٦٢) .

الأخمص:باطن القدم الذى يتجافى عن الأرض عند الوطء =المرجل:القِدر من النحاس أو الحجارة =القمقم:ما يسخن فيه من نحاس وغيره

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني،وتناسقه مع فطرة الكون كله،ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله.فهو يعيش في هذا الكون،وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب.ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان،بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق.فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل،كان هذا بذاته دليلا على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى،وهو هذا الكيان الإنساني.وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران.ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح.

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية ..خاسرة أي خسران! والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان،والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب.فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة.ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح ..هذا هو الإيمان الإسلامي ..لا يمكن أن يظل خامدا لا يتحرك،كامنا لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن ..فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت.شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها.فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعيا.وإلا فهو غير موجود! ومن هنا قيمة الإيمان ..إنه حركة وعمل وبناء وتعمير ..يتجه إلى اللّه ..إنه ليس انكماشا وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير.وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة.وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني.وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود.صادرة عن تدبير،متجهة إلى غاية.وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود.الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن اللّه.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ».صحيح مسلم- المكنز [٢ /١٤١](٥٣٧)

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِى دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ ».صحيح مسلم- المكنز [٢ /١٤٠](٥٣٦)

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة – أو الجماعة المسلمة – ذات الكيان الخاص،والرابطة المميزة،والوجهة الموحدة.الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها.والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح،الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة – أو الجماعة – المتضامة المتضامنة.الأمة الخيرة.الواعية.القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير ..وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة ..وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام ..هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير،متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن.

والتواصي بالحق ضرورة.فالنهوض بالحق عسير.والمعوقات عن الحق كثيرة :هوى النفس،ومنطق المصلحة،وتصورات البيئة.وطغيان الطغاة،وظلم الظلمة،وجور الجائرين ..والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية،والأخوة في العبء والأمانة.فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية،إذ تتفاعل معا فتتضاعف.تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله ..وهذا الدين – وهو الحق – لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة.فالقيام على الإيمان والعمل الصالح،وحراسة الحق والعدل،من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة.ولا بد من الصبر.لا بد من الصبر على جهاد النفس،وجهاد الغير.والصبر على الأذى والمشقة.والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر.والصبر على طول الطريق وبطء المراحل،وانطماس المعالم،وبعد النهاية! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة،بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف،ووحدة المتجه،وتساند الجميع،وتزودهم بالحب والعزم والإصرار ..إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها،ولا تبرز إلا من خلالها ..وإلا فهو الخسران والضياع.

وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران،فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء.يهولنا هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا – قبل الآخرة – يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه اللّه عليها مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض ..هذا والمسلمون – أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق – هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير،وأشدهم إعراضا عن المنهج الإلهي الذي اختاره اللّه لهم،وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم،وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع.والبقاع التي انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التي رفعها لها اللّه،راية الإيمان،لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيرا قط في تاريخها كله. لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء.حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة للّه،لا شريك له،المسماة باسم اللّه لا شريك له،الموسومة بميسم اللّه لا شريك له ..الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم :«ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» ..عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله،وتحت عنوان «عهد القيادة الإسلامية» :«الأئمة المسلمون وخصائصهم» :«ظهر المسلمون،وتزعموا العالم،وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها،وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا،وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم،وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم.

« أولا :أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية،فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم.لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم،ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء،وقد جعل اللّه لهم نورا يمشون به في الناس،وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس «أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها؟» وقد قال اللّه تعالى :«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَداءَ بِالْقِسْطِ،وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا.اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى،وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ».

ثانيا :- أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس،بخلاف غالب الأمـم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر،بل مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمـد - ﷺ- وإشرافه الدقيق،يزكيهم ويؤدبهم،ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار وخشية اللّه،وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها.عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ دَخَلْتُ عَلَـى النَّبِىِّ -ﷺ- أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ بَنِى عَمِّى فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِّرْنَا عَلَى بَعْـضِ مَا وَلاَّكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ « إِنَّا وَاللَّهِ لاَ نُوَلِّى عَلَى هَـذَا الْعَمَـلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلاَ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ ».[49].

ولا يزال يقرع سمعهم :«تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» ..فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب،فضـلا عـن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة،ويزكوا أنفسهم،وينشروا دعاية لهـا،وينفقوا الأمـوال سـعيا وراءها.فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد بل عدوه أمانة في عنقهم،وامتحانا مـن اللّـه ويعلمـون أنهـم موقوفـون عنـد ربهم،ومسؤولون عن الدقيق والجليل،وتذكروا دائما قول اللّه تعالى :«إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها،وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» ..وقولـه.«وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ،وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ،لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ».

«ثالثا :أنهم لم يكونوا خدمة جنس،ورسل شعب أو وطن،يسعون لرفاهيتـه ومصـلحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطـان،لم يخلقـوا إلا ليكونـوا حكاما،ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم.ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمـون ويرتعون في ظلها،ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها،ويخرجون الناس من حكـم الـروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العبـاد جميعا إلى عبادة اللّه وحده.كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلـس يزدجـرد

---

[49] - صحيح مسلم- المكنز [١٢ /٢٠٠](٤٨٢١)

:فقال:""اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ،وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا،وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ،فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ،فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ،وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.قَالُوا:وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ ؟ قَالَ:الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى،وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ.فَقَالَ رُسْتُمُ:قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ،فَهَلْ لَكُمَ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا ؟ قَالَ:نَعَمْ،كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ؟ قَالَ:لَا،بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا.فَقَالَ:مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ،فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ،وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ ""[٥٠].

فالأمم عندهم سواء،والناس عندهم سواء.الناس كلهم من آدم،وآدم من تراب.لا فضل لعربي على عجمي،ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى :«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا،إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ».

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر – وقد ضرب ابنه مصريا وافتخر بآبائه قائلا :خذها من ابن الأكرمين.فاقتص منه عمر – :متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحرارا أمهاتهم [٥١]؟ فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد،و لم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا،بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد،وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر،وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها.في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب – حتى المضطهدة منها في القديم – أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة،وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد،بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل،وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ..

---

[٥٠] – أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – (١ / ٣٧٣) والمنتظم – (١ / ٤٧٥) والبداية والنهاية لابن كثير – موافقة للمطبوع – (٧ / ٤٦) وتاريخ الرسل والملوك – (ج ٢ / ص ٢٦٨)

[٥١] – القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي. (السيد رحمه الله)

«رابعا :إن الإنسان جسم وروح،وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح،لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها،ويتغذى غذاء صالحا،ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني.وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة،ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية،وأصحاب عقول سليمة راجحة،وعلوم صحيحة نافعة» ..إلى أن يقول تحت عنوان :«دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة» :« وكذلك كان،فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور – دور الخلافة الراشدة – فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل.وفي ظهور المدنية الصالحة ..كانت حكومة من أكبر حكومات العالم،وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها،تسود فيها المثل الخلقية العليا،وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم،وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة،ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة،فتقل الجنايات،وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها،وتحسن علاقد الفرد بالفرد،والفرد بالجماعة،وعلاقة الجماعة بالفرد.وهو دور كما لي لم يحلم الإنسان بأرقى منه،ولم يفترض المفترضون أزهى منه ..».

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع «سورة العصر» قواعده،وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.فأين منها هذا الضياع الذي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان،والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر،والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة.ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة.وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار.وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة للّه.وإذا هي كلها

للباطل ليس فيها راية واحدة للحق.وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور،وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح! وراية اللّه ما تزال.وإنها لترتقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح.

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض.وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير.وهناك.هناك الربح الحق والخسر الحق.هناك في الأمد الطويل،وفي الحياة الباقية،وفي عالم الحقيقة ..هناك الربح والخسر :ربح الجنة والرضوان،أو خسر الجنة والرضوان.هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له،أو يرتكس فتهدر آدميته،وينتهي إلى أن يكون حجرا في القيمة ودون الحجر في الراحة :يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ :يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً» ..

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق ..إنه الخسر ..«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ،وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ» ..طريق واحد لا يتعدد.طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة،التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر.وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر.

إنه طريق واحد. عَنْ أَبِي مَدِينَةَ الدَّارِمِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، قَالَ:كَانَ الرَّجُلانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ"إِذَا الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ:وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، ثُمَّ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ"[٥٢]..

لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي،يتعاهدان على الإيمان والصلاح،ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر.ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور.ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور ..[٥٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٢] - المعجم الكبير للطبراني [٢٠ /٧٠](١٣٦٦) صحيح

[٥٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٩١٤]

عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّى قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَىَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ.فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِى طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِى أَهْلِى.وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِى السَّاحِرُ.فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِىَ النَّاسُ.فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَىْ بُنَىَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّى.قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَىَّ .وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِىَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِى فَقَالَ إِنِّى لاَ أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ.فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّى.قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِى قَالَ رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ.فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِىءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَىْ بُنَىَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ .فَقَالَ إِنِّى لاَ أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ.فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِىءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ.فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِىءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ.فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِىءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ.فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِى إِلَى

الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِى قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ.فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِى إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِى حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِى عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِى ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ.

ثُمَّ ارْمِنِى فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِى.فَجَمَعَ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ.ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِى صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِى صُدْغِهِ فِى مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ.

فَأُتِىَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ.فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِى أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا.أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ.فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِىٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِى فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ ».[٥٤]

وعَنْ صُهَيْبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ :كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَهُ سَاحِرٌ،فَلَمَّا كَبِرَ،قَالَ لِلْمَلِكِ :إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ،فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمُهُ السِّحْرَ،فَبَعَثَ لَهُ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ،فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ،فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ وَأَعْجَبَهُ،فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ،وَإِذَا رَجَعَ مِنْ عِنْدِ السَّاحِرِ قَعَدَ إِلَى الرَّاهِبِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ،فَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ،فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ،فَقَالَ لَهُ :إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ :حَبَسَنِي أَهْلِي،وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ :حَبَسَنِي السَّاحِرُ.فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ،فَقَالَ :الْيَوْمَ

---

[٥٤] -صحيح مسلم- المكنز [١٩ /١٠٦](٧٧٠٣) وهذا من زيادتي

المئشار:المنشار =الأخدود:الشق العظيم فى الأرض =القرقور:السفينة قيل الصغيرة وقيل الكبيرة تقاعست:توقفت ولزمت موضعها وامتنعت عن التقدم –الكنانة:وعاء السهام

أَعْلَمُ :الرَّاهِبُ أَفْضَلُ أَمِ السَّاحِرُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا ثُمَّ قَالَ :اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ،فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا،وَمَضَى النَّاسُ،فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ :أَيْ بُنَيَّ،أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي،وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى،فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ.فَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ،وَيُدَاوِي سَائِرَ الأَدْوَاءِ.فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ،كَانَ قَدْ عَمِيَ،فَأَتَى الْغُلاَمَ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ،فَقَالَ :مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي،قَالَ :إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ،إِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ،فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.فَأَتَى الْمَلِكَ يَمْشِي يَجْلِسُ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ،فَقَالَ الْمَلِكُ :فُلاَنُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ :رَبِّي،قَالَ :وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ :رَبِّي وَرَبُّكَ وَاحِدٌ.فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبْهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ.فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :أَيْ بُنَيَّ،قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ؟ قَالَ :إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا،إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ.فَأَخَذَهُ،فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبْهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ.فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ،فَقِيلَ لَهُ :ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبِي،فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ،فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشُقَّ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ،فَقِيلَ :ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبِي،فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ :ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبِي،فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ :اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا،فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ.فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَقَالَ :اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ،فَسَقَطُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.فَدَفَعَهُ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ :اذْهَبُوا بِهِ،فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ،فَوَسِّطُوا بِهِ الْبَحْرَ،فَلَجِّجُوا بِهِ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ،فَقَالَ :اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ :كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.،فَقَالَ لِلْمَلِكِ :وَإِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ،قَالَ :وَمَا هُوَ ؟ قَالَ :تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِكَ،ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قُلْ :بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلاَمِ،ثُمَّ ارْمِنِي،فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ صَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ

أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ،ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ قَوْسِهِ،ثُمَّ،قَالَ :بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ رَمَاهُ،فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ،فَوَضَعَ يَدَهُ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ،فَقَالَ النَّاسُ :آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،ثَلَاثًا.فَأُتِيَ الْمَلِكُ،فَقِيلَ لَهُ :أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ،قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ،قَدْ آمَنَ النَّاسُ.فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ،وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ :مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ،فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا،فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا،فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ :يَا أُمَّهِ اصْبِرِي،فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ.[55]

إن قصة أصحاب الأخدود – كما وردت في سورة البروج – حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل .فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب مع مقدمتها والتعقيبات عليها،والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها ..كان يخط بها خطوطاً عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله،ودور البشر فيها،واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع – وهو أوسع رقعة من الأرض،وأبعد مدى من الحياة الدنيا – وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق،ويعدُّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم،وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور .

إنها قصة فئة آمنت بربها،واستعلنت حقيقة إيمانها .ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق " الإنسان " في حرية الاعتقاد بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد،وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى بها الطغاة بآلام تعذيبها،ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق !

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة،وانتصرت فيها العقيدة على الحياة،فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة،و لم تفتن عن دينها،وهي تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة،فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة،وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً،وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

---

[55] – صحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [٣ /١٥٣](٨٧٣) صحيح –زيادة مني

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيِّرة الرفيقة الكريمة كانت هناك جبلات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة .وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار .يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون .جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار،والأناسي الكرام يتحولون وقوداً وتراباً .وكلما ألقي فتى أو فتاة،صبية أو عجوز،طفل أو شيخ،من المؤمنين الخيرين الكرام في النار،ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة،وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة وارتكست في هذه الحمأة،فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف،بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط،فالوحش يفترس ليقتات،لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع،الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور .

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان .وإن هذا الإيمان الذي بلغ الذروة العالية،في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية ..لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث،كما لا تذكر النصوص القرآنية،أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة،كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط .أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر .

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة !

أفهكذا ينتهي الأمر،وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية،التي ارتكست إلى هذه الحمأة،ناجية ؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة !

ولكن القرآن يعلِّم المؤمنين شيئاً آخر،ويكشف لهم عن حقيقة أخرى،ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها،وبمجال المعركة التي يخوضونها .

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام،ومن متاع وحرمان ..ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ..وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة .والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة .فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة،وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان .وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة،وانتصار العقيدة على الألم،وانتصار الإيمان على الفتنة ..وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم،وانتصرت على جواذب الأرض والحياة،وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار ..وهذا هو الانتصار ..

إن الناس جميعاً يموتون،وتختلف الأسباب .ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار،ولا يرتفعون هذا الارتفاع،ولا يتحررون هذا التحرر،ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق ..إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت،وتنفرد دون الناس في المجد،المجد في الملأ الأعلى،وفي دنيا الناس أيضاً .إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال !

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم .ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير،معنى زهادة الحياة بلا عقيدة،وبشاعتها بلا حرية،وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟

إنه معنى كريم جداً،ومعنى كبير جداً،هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض،ربحوه وهم يجدون مس النار،فتحرق أجسادهم الفانية،وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار !

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها،وليس هو الحياة الدنيا وحدها .وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال .إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها،ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها،وغير ميزان الأرض في أجيالها جميعاً .والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم

الأرض من الناس ..وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة .وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض،ولا ينفصل عنه،لا في الحقيقة الواقعة،ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة .فالمعركة إذن لم تنته،وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد،والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح،لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد .

النظرة الأولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعنّ للإنسان العجول .والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها،لأنها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح .ومن ثم وعد الله للمؤمنين جزاء على الإيمان والطاعة،والصبر على الابتلاء ،والانتصار على فتن الحياة ..هو طمأنينة القلب :{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } ...[الرعد :٢٨] .

وهو الرضوان والود من الرحمن :{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً } [مريم :٩٦] .

وهو الذكر في الملأ الأعلى :عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِى.فَيَقُولُونَ نَعَمْ.فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ.فَيَقُولُونَ نَعَمْ.فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِى فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ.فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِى بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ ».[أخرجه الترمذي] [٥٦].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ النَّبِىُّ – ﷺ – « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى،وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى،فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى،وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ،وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا،وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا،وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » ..[أخرجه الشيخان] [٥٧].

---

[٥٦] -سنن الترمذى- المكنز – (١٠٣٧) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.-الشفير:الطرف

[٥٧] – صحيح البخارى- المكنز – (٧٤٠٥) وصحيح مسلم- المكنز – (٦٩٨١)

هَذَا الْحَدِيث مِنْ أَحَادِيث الصِّفَات ،وَيَسْتَحِيل إِرَادَة ظَاهِره ،وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَام فِي أَحَادِيث الصِّفَات مَرَّات ،وَمَعْنَاهُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْت إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَالتَّوْفِيق وَالْإِعَانَة ،وَإِنْ زَادَ زِدْت ،فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي أَتَيْته

وهو اشتغال الملأ الأعلى بأمر المؤمنين في الأرض :{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ }[غافر :٧]

وهو الحياة عند الله للشهداء :{ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ،فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ،يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران :١٦٩ - ١٧١] .

كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة والإملاء لهم في الأرض والإمهال إلى حين ..وإن كان أحياناً قد أخذ بعضهم في الدنيا ..ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الأخير :{ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ،مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران :١٩٦ - ١٩٧] .

{ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ،مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ } ..[إبراهيم :٤٢ - ٤٣] .

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ،يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ،خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } [المعارج :٤٢ - ٤٤] .

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى،واتصلت الدنيا بالآخرة،ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر،والحق والباطل،والإيمان والطغيان .ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف،ولا موعد الفصل في هذا الصراع ..كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان .

هَرْوَلَة ،أَيْ صَبَبْت عَلَيْهِ الرَّحْمَة وَسَبَقْته بِهَا ،وَلَمْ أُحْوِجْهُ إِلَى الْمَشْي الْكَثِير فِي الْوُصُول إِلَى الْمَقْصُود ،وَالْمُرَاد أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُون تَضْعِيفه عَلَى حَسَب تَقَرُّبه .شرح النووي على مسلم - (٩ / ٣٥)

انفسح المجال في المكان،وانفسح المجال في الزمان،وانفسح المجال في القيم والموازين،واتسعت آفاق النفس المؤمنة،وكبرت اهتماماتها،فصغرت الأرض وما عليها،والحياة الدنيا وما يتعلق بها،وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات،وكانت قصة أصحاب الأخدود في القمة في إنشاء هذا التصور الإيماني الواسع الشامل الكبير الكريم .

هناك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج حول طبيعة الدعوة إلى الله،وموقف الداعية أمام كل احتمال .

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات ..

شهد مصارع قوم نوح،وقوم هود،وقوم شعيب،وقوم لوط،ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد،مجرد النجاة .ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة .وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجِّل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا،أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك .

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده،ونجاة موسى وقومه،مع التمكين للقوم في الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم .وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة،وإلى إقامة دين الله في الأرض منهجاً للحياة شاملاً ..وهذا نموذج غير النماذج الأولى .

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد – ﷺ – وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً،مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصاراً عجيباً .وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمناً على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط،من قبل ولا من بعد .وشهد – كما رأينا – نموذج أصحاب الأخدود ..وشهد نماذج أخرى أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني في القديم والحديث .وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون .ولم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود،إلى جانب النماذج الأخرى .القريب منها والبعيد ..

لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون،ولا يؤخذ فيه الكافرون ! ذلك ليستقر في حس المؤمنين – أصحاب دعوة الله – أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله .وأن ليس لهم من الأمر شيء،إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله !

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم،ثم يذهبوا،وواجبهم أن يختاروا الله،وأن يؤثروا العقيدة على الحياة،وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية .ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم،كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء.وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان،أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه.إنهم أجراء عند الله.أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا،عملوا وقبضوا الأجر المعلوم !وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير،فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!

وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب،ورفعة في الشعور،وجمالاً في التصور،وانطلاقاً من الأوهاق والجواذب،وتحرراً من الخوف والقلق،في كل حال من الأحوال .وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الأعلى وذكراً وكرامة،وهم بعد في هذه الأرض الصغيرة .ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة حساباً يسيراً ونعيماً كبيراً .

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً .رضوان الله،وانهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستاراً لقدرته،يفعل بهم في الأرض ما يشاء .وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور،الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم .فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة،وعملوا أجراء عند صاحب الأمر ورضوا خيرة الله على أي وضع وعلى أي حال .وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية،وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة،وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا والآخرة سواء .فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،قَالَ:" لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ،فَأَخَذَ بِيَدِي،فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ،فَمَرَّ بِعَمَّارٍ،وَأَبِي عَمَّارٍ،وَأُمِّ عَمَّارٍ،وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ:" صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ،فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ " [٥٨]..

[٥٨] – معرفة الصحابة لأبي نعيم – (٥ / ٢٨١٣) (٦٦٦٢) صحيح لغيره

وعَنْ خَبَّاب بْنِ الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ،فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ،مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » .[أخرجه البخاري][٥٩] .

إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال،ومدبر هذا الكون كله،المطلع على أوله وآخره،المنسق لأحداثه وروابطه .هو الذي يعرف الحكمة المكونة في غيبه المستور،الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل .وفي بعض الأحيان يكشف لنا – بعد أجيال وقرون – عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته،ولعلهم كانوا يسألون لماذا ؟ لماذا يا رب يقع هذا ؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن .لأنه يعرف ابتداء أن هناك حكمة وراء كل قدر،ولأن سعة المجال في تصوره،وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازين تغنيه عن التفكير ابتداء في مثل هذا السؤال .فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان ..لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة،وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء،وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض،ولا تنظر إلا إلى الآخرة،ولا ترجو إلا رضوان الله،قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت بلا جزاء في هذه الأرض قريب،ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة،وغلبة الإسلام وظهور المسلمين ،بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب،التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلا أن تعطي بلا مقابل – أي مقابل – وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل .حتى إذا وجدت هذه القلوب،وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت،آتاها النصر في

---

[٥٩] – صحيح البخارى– المكنز – (٣٦١٢)

الأرض،وائتمنها عليه .لا لنفسها،ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه،ولم تتطلع إلى شئ من الغنم في الأرض تعطاه .وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه .

وكل الآيات التي ذكر فيها النصر،وذكر فيها المغانم،وذكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة ..بعد ذلك ..وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه .وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية،تقرره في صورة عملية محددة تراها الأجيال ..فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام،إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله،في كل أرض وفي كل جيل .فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش،وأن تثبِّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته،كيفما كانت هذه النهاية .ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون،فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء،وبالعرق والدماء،إلى نصر أو غلبة،أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض ..ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله ..لا جزاء على الآلام والتضحيات ..لا،فالأرض ليست دار جزاء ..وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء،وحسبهم هذا الاختيار الكريم،الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة،وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء .

هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى :{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ..حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل .إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق .وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان،ولا يسخطون منهم إلا العقيدة ..إنها ليست معركة سياسية ولا معركة

اقتصادية،ولا معركة عنصرية ..ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها،وسهل حل إشكالها .ولكنها في صميمها معركة عقيدة – إما كفر وإما إيمان ..إما جاهلية وإما إسلام !
ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله – ﷺ – المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد،أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن في هذا الأمر !
ولو أجابهم – حاشاه – إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق !
إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة ..وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم .فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة " إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع ! وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة،راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية،كي يموّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة،ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة .فمن واجب المؤمنين ألا يُخدَعوا،ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت .وأن الذي يغيِّر راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها،النصر في أية صورة من الصور،سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود،أو في صورة الهيمنة – الناشئة من الانطلاق الروحي – كما حدث للجيل الأول من المسلمين .
ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة،وأن تزور التاريخ،فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار ..كلا ..إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى ! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر،وفيهم صلاح الدين الكردي،وتوران شاه المملوكي،العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة ! { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } .وصدق الله العظيم،وكذب المموهون الخادعون ![٦٠]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٦٠] – معالم في الطريق بتحقيقي [ص ١٦٣] وما بعدها

الفهرس العام